أدب مراسلات



الأسبوع الدامي

رسائل حول «كومونة باريس» 1871

اميل زولا

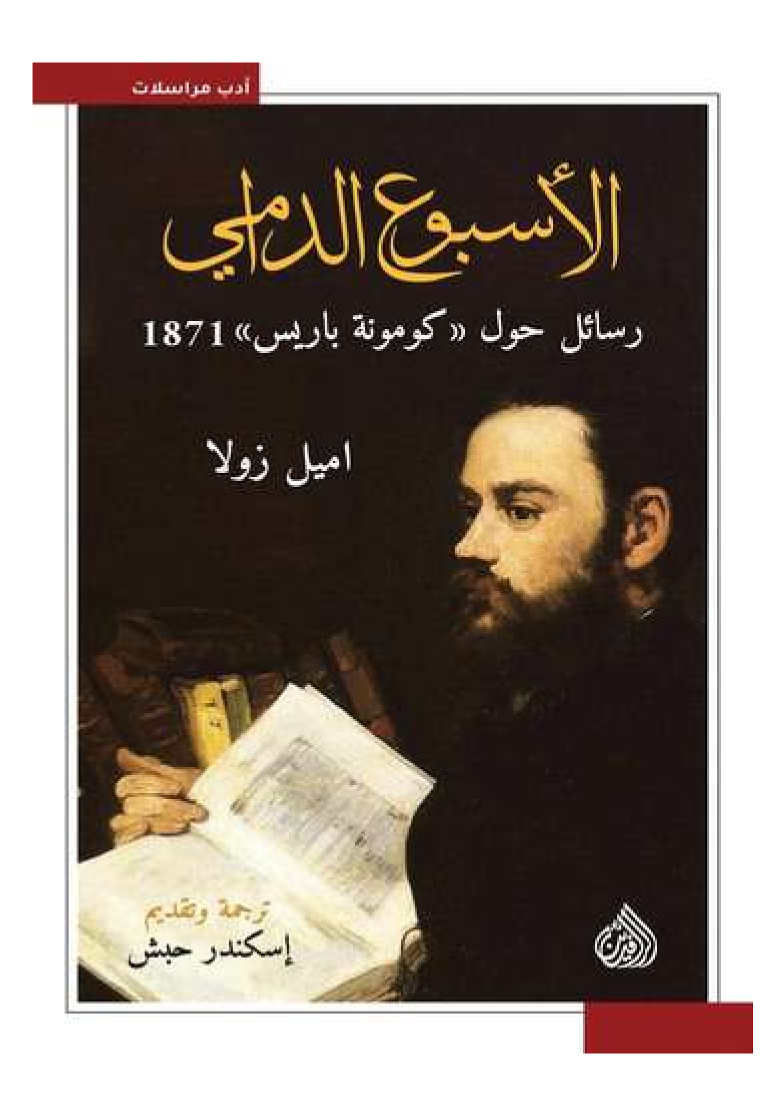


ترجمة وتقديم

إسكندر حبش



الفصل 1


أدب مراسلات
الأسبوع الدامي
رسائل حول «كومونة باريس» 1871
اميل زولا
ترجمة وتقديم
إسكندر حبش


تليجرام مكتبة غواص في بحر الكتب

الفصل 2

الاسبوع الدامي

(رسائل حول «كومونة باريس» ١٨٧١)

إميل زولا

ترجمة وتقديم: إسكندر حبش

الأسبوع الدامي

رسائل حول «كومونة باريس» 1871

La Semaine Sanglante

Lettres sur la Commune

إميل زولا

ترجمة وتقديم: إسكندر حبش

الطبعة الأولى: أبريل ـ نيسان، 2019 (1000 نسخة)

بيروت ـ لبنان



لبنان ـ بيروت / الحمرا

تلفون: +961 1 345683 / +961 1 541980

بغداد ـ العراق / شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: 07714440520 / 07811005860

daralrafidain@yahoo.com — dar alrafidain

info@daralrafidain.com — Daralrafidain

www.daralrafidain.com — @daralrafidain_l دارالرافدين

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

OBJ

الفصل 3

إميل زولا و«كومونة باريس»

ا

هل كان الروائي الفرنسي الكبير إميل زولا، خصماً عنيداً، بل لنقل خصماً متوحشاً لـ «كومونة باريس» (1871)؟ يذهب الكاتب بول لودسكي، في كتابه «كُتّاب ضدّ الكومونة» (صدر بدايةً عن منشورات «ماسبيرو» العام 1970، وأعادت منشورات «لا ديكوفيرت» إصداره في سلسلة «الجيب»)، إلى توجيه اتهامات قاسية ضدّ «الصحافي» الذي كان يكتب في صحيفتي «لا كلوش» (باريس)، و«لو سيمافور» (مارسيليا)، كما ضدّ الروائي الشهير الذي أصبح عليه لاحقاً. أليس في الأمر مبالغة ما؟

لو عدنا إلى تاريخ حياته وسيرته الشخصية، لم يكن إميل زولا، ثوريّاً، لم يدَّعِ يوماً أنه كذلك، أو أنه واحد من مريدي بلانكي، مثلما لم يقل يوماً إنه من قرّاء برودون أو إنه قريب من ماركس. لم يكن يكتب في صحيفة «صرخة الشعب» التي رأس تحريرها الكاتب فاليس (صوت اليساريين في تلك الحقبة). لقد حاول جاهداً، في البداية ــ وفي قلب هذا الوضع المتحرك والصعب ــ أن يحتفظ بمكان هو «الوسط بدقة» ما بين الكومونة وقصر فرساي. لقد شعر زولا بخيبة أمل من «الحكومة الرسمية»، كما شعر بالحذر أمام محاولات بعض مسؤولي «أوتيل دو فيل» (مبنى البلدية، الذي كان مركز المتمردين ضد السلطة)؛ لذا كتب يوم 28 نيسان: «بالتأكيد، فيما يتعلق بالعمّال الحقيقيين، فيما يخصّ من هم في عوز وحاجة أو أمام قناعاتهم التي تنمو تحت القصف، إن مشاعري كبيرة، ولا أخشى في ترديد ذلك». أما في 31 أيار من تلك السنة، نراه يروي في صحيفة «لو سيمافور» وكان ذلك بعد انتهاء «الأسبوع

الدامي»: «نجحت بالقيام بنزهة في باريس، كان الأمر مرعباً»، (من كتاب «زولا صحافيّاً»، لفريديريك ميتران، منشورات «أرمان كولان»، العام 1962).

ويتابع الصحافي والكاتب (أي زولا)، في مقالته هذه قائلاً: «أريد فقط أن أحدثكم عن أكوام الجثث المتراكمة فوق الجسور. أبداً، لن أنسى هذا الانقباض الذي شعرت به أمام هذه الأكوام من اللحم الإنساني الدامي، المرمي كيفما اتفق فوق دروب التحقيقات. الرؤوس والأعضاء ممتزجة ببعضها البعض، بشكل مهروس. ومن هذه الأكوام، تنبجس وجوه متشنجة»...! هل هذا الاستدعاء الكتابي، يشكل خصماً كبيراً لتلك الملحمة التي جرت يومها؟ يُعبّر زولا أيضاً عن اشمئزازه تجاه الرعب العام من المحاكم العسكرية، وهو الذي لا يتورع أبداً، من الشعور أيضاً بالغضب أمام المتهمين، بل أكثر من ذلك، يذهب أحياناً إلى إثارة سخط الحضور. إذ إنها ــ هذه المحاكم ــ تحكم بالإعدام والترحيل، فبرأيه أنه بعد هذا الخوف الكبير، علينا إيجاد الرحمة، والمسامحة، مسامحة «هذه الطبقات الخطرة»...

إزاء ذلك، طالب زولا باتخاذ إجراءات عفو، العفو عن الكومونيين، وعن المعادين للكومونة؟ من هنا، يجب القول إنه، والحال كذلك، ألّا نمزج بينه وبين ماكسيم دو كامب وغوستاف فلوبير وجورج صاند وتيوفيل غوتييه، والعديد غيرهم لأنه لم يصرخ ــ في مجمل كتاباته ــ مع الذئاب، أي لقد راكم معاركه من أجل اكتشاف الحقيقة.

II

هذا اللغط، إن جاز التعبير والقول ــ لغط أن زولا كان ضد «الكومونة» ـ يكمن في هذه الرسائل التي كتبها العام 1871، (والتي نترجمها كاملة هنا)، خلال الأحداث التي عصفت بفرنسا في ذلك القرن، وتحديداً مدينة باريس. ثمة الكثير من التعابير والمواقف، التي تشي بأن إميل زولا كان ضد «الكومونة» فعلاً... ثمة كتابة هنا تشير بوضوح إلى موقف كاتبها. هذا من ناحية أولى. لكن

تاريخ الأدب علّمنا أن هناك ما يسمى بالتضمينات والتأويل. ربما يمكن القول ــ انطلاقاً من هذا ــ إن موقف زولا المعادي لـ «الكومونة»، ينبع من موقف أساسي: رغبتها في تدمير باريس. فباريس بالنسبة إلى الكاتب، هي المدينة الأكبر وهي رمز لثقافة وحضارة لا يمكن لأيّ شخص أن يدمرها وفق أهوائه.

من هنا وجد، أن «الكومونيين» حاولوا تدمير هذه المدينة العظيمة، هذا الصرح الإنساني؛ لذلك لم يهادن في كلماته، بل جاءت واضحة في وقوفه ضدها (ضدّ الكومونة)، من حيث هي حركة تخريب وتدمير، لا من حيث هي حركة تغيير. لقد انتصر إميل زولا، في رسائله هذه، للجيش الفرنسي، ضدّ المتمردين الذين حاولوا محو تاريخ بأكمله. لذلك لا بدّ أن نطرح السؤال التالي: كيف يمكن لهذا الشاب الصحافي الذي يبدو ضد «الكومونة»، أن يكتب ــ بصفته الروائية فيما بعد ــ تلك الروائع الأدبية القصصية عن المضطهدين وعمال المناجم؟

نتناسى أمراً أساسيّاً: هذه الكتابات الصحافية الأولى، لم تكن سوى تأملات وانعكاسات هذا الشخص الذي ينتمي إلى الطبقة البورجوازية. من هنا عارض زولا الفوضى والانزياحات التي جرَّتها «الكومونة» وراءها. لكنه عارض أيضاً ــ وفي الوقت عينه، ولنقل بالمقدار عينه ــ تلك الاضطهادات التي مارسها قصر فرساي (مقرّ الحكومة الشرعية). لم يتورّع عن القول: «هذا هو المرعب. لقد تقاتلنا كإخوة وسنذهب إلى تتويج من ارتكبوا أكثر المجازر بحقّ مواطنيهم! ثمة عبث في ذلك كلّه! بعد ثمانية أيام، وبدلاً من الرعب الأحمر، سيحلّ الرعب الأبيض... يرعبني انتصار فرساي؛ كنّا نظن أنفسنا على بعد ألف فرسخ من باريس، وكنّا نتحدث عن مدينتنا المسكينة وكأنها وكر للزعران...

لم يخفِ إميل زولا أن مرأى سجناء الاتحاديين كان ينزع كلمات الشفقة منه ليذرف الدمع كلّما سمع الطلقات النارية التي يطلقها فصيل الإعدام. ومع ذلك، فإن صورة «الكومونيين» التي تعكسها بعض كتبه، من مثل «La Débâcle» (يمكن ترجمتها بـ «الانهيار» أو «الكارثة» أو «الهزيمة») ليست صورة

مثيرة للفرح. إذ ــ والحق يقال ــ لم يرَ في الكومونة، سوى فصل دامٍ من التاريخ، تاريخ فرنسا، من دون أن يحاول البحث عن معرفة الأسباب التي دفعت تلك الجماعة إلى القيام بذلك.

ثمة ملاحظة أخرى يمكن لنا تسجيلها: خلال تلك الأيام الرهيبة، حاول زولا جاهداً أن يبقى ليشاهد الأحداث التي كانت تدور في العاصمة؛ لقد سلك الطرقات ليتبيّن له أن ما يراه ليس سوى شهادة حساسة عن البؤس الذي يعانيه «الشعب الصغير». ومع مرور السنين، قام هذا الشعب الصغير بالتأثير الكبير على أعماله الروائية اللاحقة.

III

إميل زولا، كاتب وروائي وصحافي فرنسي، ولد في الثاني من شهر نيسان (أبريل) العام 1840 في مدينة باريس، التي توفي فيها يوم 29 أيلول (سبتمبر من العام 1902). يعتبر زولا زعيم «الحركة الطبيعية» في الأدب، وهو واحد من الروائيين الفرنسيين (لغاية اليوم) الأكثر شعبية والأكثر نشراً وترجمة وتحليلاً في العالم. عرفت رواياته شهرة واسعة، واقتبست بشكل كبير إلى السينما كما تحولت إلى مسلسلات تلفزيونية. قدمت حول أعماله العديد من الدراسات التاريخية، كما الأطروحات الجامعية. وفيما يخصّ المستوى الأدبي، فقد عرف الشهرة الجماهيرية الكبيرة بفضل سلسلته الروائية (Les Rougon - Macquart) التي جاءت بمثابة فريسك روائي هائل في عشرين جزءاً، يرسم فيها صورة عن المجتمع الفرنسي إبّان حكم الإمبراطورية الثانية والتي يضع فيها فوق مجرى الأحداث مسار عائلة «روغون ــ ماكار»، عبر مختلف أجيالها، حيث إن كل واحد منها، يمثل عصراً وجيلاً خاصّاً، ليؤسس حيّزه في الكتابة، أقصد أن كل جيل وشخص يشكلان عماد رواية واحدة من روايات الكاتب.

عرفت السنوات الأخيرة من حياة إميل زولا التزامه الكامل بقضية الضابط دريفوس، الذي اتهم بالخيانة لصالح ألمانيا (وهي المقالة التي شهدت انطلاق

مقولة «المثقف» مثلما نعرفها اليوم)، وذلك بعد أن نشر في شهر كانون الثاني (يناير) من العام 1898، وفي صحيفة «لورور» («الفجر») اليومية مقالته الشهيرة «إني أتّهم» (رسالة إلى رئيس الجمهورية الفرنسي آنذاك، إميل فور)، ما سبب له المحاكمة بسبب اتهامه تلفيق أحداث، وقد نتج عن ذلك، نفيه إلى لندن في السنة عينها.

IV

«من شهر شباط 1871 ولغاية شهر آب من العام 1872، أنتج زولا وكتب «تعليقات برلمانية» بعنوان: «الجمهورية قيد الحركة»، نشرها في صحيفتي «لا كلوش» و«لو سيمافور مارسيليا». هذه المقالات أتاحت له، وفي الوقت عينه، في التعرف إلى العالم السياسي وفي تأسيس صداقات حقيقية» (ويكيبيديا). ومثلما تتابع بالقول، موسوعة الإنترنت هذه: «كان إميل زولا، الشاب، وهو في الواحدة والثلاثين من عمره، يقف على مفترق طريق؛ مفترق الربع الأخير من القرن التاسع عشر الفرنسي... كان يحمل على ظهره مهمة أن يكون صحافيّاً سياسيّاً. وذلك من دون تحليل سياقي أوّلي يذهب به إلى أقصاه، ويمكن أن يكون ذلك عائداً لكي يضمن ــ وفي الوقت عينه ــ تأثيرات إغراق مفاجئ في تلك الحقبة وفي خيارات المراسل المتفردة». من هنا جاء ما كتبه، في الصحيفتين الشهيرتين في تلك الفترة، لتنسج قماشة المقالات التي نشرها الكاتب، والتي اعتبرها البعض بمثابة «يوميات وعي مستمر»، وهذا ما تشهد عليه كلماته، المتتابعة والمتراصة، في تلك اللحظات الحاسمة، والبالغة الأهمية في تاريخ فرنسا والتي كان شاهداً حيّاً عليها ليقدم من خلالها شهادة عن تطور الأحداث السياسية والعسكرية في بلاده. هذه اللحظات الواسمة، تتشكل بالطبع أيضاً، من الأحداث القاسية والدرامية التي جرت حول باريس خلال «الكومونة» والتي استمرت من 18 آذار إلى 3 حزيران من العام 1871.

يتمثل الإطار الزمني (إطار ربيع العام 1871) من تلك الفترة التي كانت فيها فرنسا مقسومة إلى معسكرين. فمنذ شهر أيلول في العام 1870، كان «البروسيون» والمستشار بيسمارك قد دخل واحتل جزءاً من الأراضي الفرنسية. وعقب سقوط نابليون الثالث في «سيدان» ــ (على الرغم من أن هذا الأخير كان قد أعلن الحرب عليهما) ــ مارس «البروسيون» وبيسمارك ضغطاً رهيباً على فرنسا من أجل دفع جزية (بقيمة 5 مليارات فرنك فرنسي من عملة تلك الحقبة)، كما من أجل «مصادرة احتياطية» شاملة لكلّ ما له علاقة بالعسكر. وحدها باريس قاومت ورفضت أن ترضخ للأمر. أما باقي المدن الفرنسية، وعبر نوابها، فقد انتقدت موقف المدينة المحاصرة لكن المقاومة. إزاء هذا الموقف، تبدّى تعاون جديد تمثل فيه كل من «الملكيين» (الذين كانوا يشعرون بالحنين إلى الأزمنة السابقة) و«البورجوازيين» الذين كانوا يعلنون أحياناً بأنهم «جمهوريون»، ليجتمعوا في فرساي، وليستعدوا لمواجهة هذا «العقاب» المفروض من قبل العدوّ. هذه المواجهة، كانت بقيادة رئيس المجلس الجديد السيد تييرس الذي وضع فيه زولا آماله وكال له المديح. لكن وفي الثامن عشر من آذار، ومقابل الذين شغلوا قصر فرساي، ثارت باريس واتحدت ودافعت عن نفسها. حوصرت المدينة وعرفت الجوع والمعارضة الحادة من قبل «إخوتها» الجمهوريين...

V

يتألف هذا الكتاب من 13 رسالة، كان بعث بها إميل زولا يوميّاً إلى صحيفة «لو سيمافور» في مارسيليا، وهي تروي، من وجهة نظره، وعبر مشاهداته اليومية، الأيام الأخيرة من حصار باريس، قبل أن تسقط «الكومونة». هذه الأيام عرفت باسم «الأسبوع الدامي» وهو شهد الكثير من أعمال العنف والقتل والتدمير والحرائق. لكن وسط ذلك كلّه، لا بدّ أن نلاحظ حبّ الكاتب لمدينته ورفضه تدميرها تحت أيّ مبرر. لذلك قد يتفاجأ كثيرون من موقف زولا من «الكومونة» ومن دفاعه عن السلطة يومها، إذ إنه الكاتب الذي

جاءت رواياته لتتحدث عن العمّال والمعدمين والفقراء، أي بمعنى آخر، جاءت لتقف ضد السلطة السائدة آنذاك، من دون أن ننسى بالطبع موقفه (في أواخر حياته) من قضية دريفوس، ورسالته الشهيرة إلى رئيس الجمهورية في مطلع القرن العشرين، ما دفعه إلى اختيار المنفى ويذهب إلى العيش في لندن.

في أيّ حال، نكتشف هنا، في هذه الرسائل، وجهاً آخر من وجوه صاحب رواية «جيرمينال». وربما يجعلنا وجهه هذا نعيد التفكير قليلاً، فيما بين الموقف الأدبي، وبين الموقف السياسي لدى أيّ كاتب، بمعنى أنه يمكن للمرء أن يكون متناقضاً في لحظة ما، وإن كانت هذه الرسائل تحمل سمتها الأدبية، بعيداً عن سمتها السياسية.

هي كتابات تعود إلى إميل زولا الشاب. وربما ما بين هذه الرسائل والروايات اللاحقة، يكون زولا قد تبدل كثيراً...



الفصل 4

الرسالة الأولى: لم تغلق باريس عيناً

22 أيار 1871

أكتب إليكم من داخل هذه الحمّى. ما كدت، بالأمس، أضع رسالتي في مكتب البريد، حتى سرت شائعة كبيرة حول دخول الجيش إلى باريس. اقتربت قدر الإمكان من حيّ محتلّ، واستمعت إلى ما تقوله المجموعات (المتواجدة هناك)، وقد قمت، باختصار وبوعي، باصطياد القصص والأخبار؛ يا إلهي الرحيم! كم من المعلومات المتناقضة، وكم أشعر بالارتباك من الكتابة إليكم بطريقة قصيرة ودقيقة.

الخبر الكبير، كان في اجتياز السور، ما بين الساعة الثالثة والرابعة، ومن جهتين في الوقت عينه: من «بوان ــ دو ــ جور» ومن «مون روج»...

أنقل لكم هذه المعلومات بتحفّظ كامل، إذ إن التنقل يزداد صعوبة في باريس أكثر فأكثر. يتوجب سماع كلّ شيء والخضوع إلى عدم القدرة على التأكد ما إن كانت هذه المعلومات صحيحة أم مغلوطة، وهي تنتقل من فمّ إلى فمّ. الغليان رهيب. الحواجز محروسة بمفارز لا تسمح بمرور أيّ شخص. لقد حَلّت الأزمة، وسيدوم هذا الرعب لغاية انتصار فرساي الكامل. وإلى الآن، تمّ إيقاف كلّ الصحف النزيهة، ولا أدري ما الذي تتوقعونه بالنسبة إليكم.

لقد عرفتم قبلنا بالطبع، الرواية الحقيقية حول دخول فرق الجنود. تمّ هذا الدخول بطريقة سلمية. تقدم رجل فوق الجسر المهدم من بوابة «سان ــ كلود»، داعياً الجنود إلى الاستيلاء على الحاجز الخالي. حينذاك استولى

الملازم المسؤول عن مراكب «تريف» على السدّ عبر حفنة من الرجال. قُطّعت أسلاك الطوربيدات، ودخل بقية العسكر عبر الفتحة، إذ إن العبقرية، وخلال دقائق معدودة، كنست الردم. وبذلك احتلت فرق «دواي» و«لادميرو» و«كلانشان»، «بوان ــ دو جور»، مطلقة فقط، بعض العيارات النارية. في هذه الساعة، هناك أكثر من ستين ألف جندي قد اجتازوا ذاك المكان؛ وفرق الحراسة الكبيرة هي الآن أمام الجسر.

لم تغلق باريس عينها، هذه الليلة. فثمة قصف مدفعي عنيف بشكل كبير لم يتوقف عن رجّ زجاج النوافذ...

السؤال الذي يُطرح الآن، كم يوماً يمكن للمعركة أن تستمر في باريس؟ هذا هو السؤال الكبير الذي من الصعب التفوّه به. يجب الاعتماد، بشكل خاص، على انحلال «الكومونة» القدري، وعلى انهيارها. إن لم يعشش الخوف في «فندق المدينة» وفي قلوب «الحرس الوطني»، يمكن لهذا الصراع أن يستمر طويلاً وبشكل دامٍ.

من جهة أخرى، علينا أن نعترف بأن ليس كلّ رجال حركة 18 آذار سيهربون بجبن؛ سيبقى البعض منهم للأسف ليضعوا في رؤوسهم التوحش واليأس. أعتقد إذن بأن علينا، لا أن نُسرّ كثيراً ولا أن نرتعش كثيراً. الأمر بعيد عن أن يكون قد انتهى حقّاً؛ بيد أن الحلّ سيأتي وحده، سيحتلّ الجيش «فندق المدينة» (مبنى البلدية) مثلما احتل الحاجز، مع القليل من الصبر والقليل من المناوشات في الشارع. لا أعتقد أنه سيكون هناك انتصار سريع ولا دفاع مستميت. ومع ذلك، فإن خيّر لي إبداء رأي، أجدني أميل إلى النصر السريع.

إلّا أنني، أخشى جدّاً بأن الاستيلاء على مبنى البلدية لن يوقف المعركة. فالتمرد الذي انطلق من «مونمارتر»، و«لاشابيل»، و«بلفيل»، سيعود بالتأكيد كي يموت في تلك الأماكن. سيهزم هناك، إلّا أنه يمكن أن يكون لاحتضاره نتائج كارثية. لن تعود الأعمال أبداً إلّا حين تصبح باريس مدينة سالمة...

سيكون احتضار الكومونة أمراً مفرحاً، هل قرأتم المرسوم الذي اقترحه المواطن فيزينييه، الذي يفيد باعتراف جماعي بجميع الأطفال الطبيعيين؟ الجملة لا تُغتفر: «كل الأطفال الطبيعيين غير المعترف بهم، ستعترف بهم الكومونة ليصبحوا شرعيين». ثمة سخرية عالية في ذلك، كما لو أننا نصدق بأن هؤلاء السادة قد بذروا اللقطاء في شبابهم، إلى هذه الدرجة التي يحمّلون فيها الوطن مهمة إيجاد أمّ لعائلاتهم المتعددة. ولا أحدثكم بالطبع عن الاقتراح بحرق الكتاب الكبير (الكتاب المقدس) ولا عن عناوين استحقاقات الهاربين، كما أيضاً، عن إلغاء كل المناصب العائدة للنظم الشرفية.

لقد انتهت المزحة الآن. سيتمّ توقيف المهرجين: لقد أصبح روشفور في السجن، ونحن نأمل بأن لا يتأخر الآخرون باللحاق به. يزأر المدفع بصوت مرتفع؛ هو الرعب الأخير هو الفزع الأخير من فصول الحرب الأهلية.



الفصل 5

الرسالة الثانية: أيّ نهار مرعب في باريس!

23 أيار 1871

النصر أمر جذريّ، قاطع، نقطة تحول. في الأمس، لم يكن باستطاعتي أن أصدق بعد هذا الخلاص الذي تمّ خلال عدة ساعات. منذ فترة طويلة، ونحن نجرجر أنفسنا في مصائب متنوعة، لدرجة أننا لا نجرؤ على الاعتماد على الحلول السعيدة. لقد استحق الجيش الوطن حقّاً.

أيّ نهار مرعب في باريس! انفجرت الأزمة بغتة وقد أثارت رعب الجميع. نهار أمس، ومنذ الفجر، لم يتوقف قصف المدفعية ولا صوت إطلاق النار. أقفلت جميع الحوانيت، وبقيت الأرصفة قاحلة؛ ومن بعيد يظهر بعض الحشريين المرعوبين الذين يصابون بالإغماء، بلمسة ساحر، على أعتاب منازلهم، عند أقلّ إنذار. وفي مقابل ذلك، حافظت بعض الأحياء على حيويتها الكاملة. فالنساء، الواقفات على الأبواب، لم يُصبن بالخوف من التفاصيل المرعبة. حتى أنني رأيت، في المقاهي، أناساً يلعبون البليار بطمأنينة. ومع ذلك، كان التشوش عينه، الذي نسمعه في الأخبار المتناقلة. سيكون التقدم باتجاه مسرح الأحداث محفوفاً بالمخاطر، لذا نحن مجبرون على أن نقتنع بسير الأحداث العام. صباح أمس، سقطت ساحة «التروكاديرو»، كان باسي على رأس قوة الجيش التي اعتقلت أربعة أو خمسة آلاف سجين. فبدءاً من تلك اللحظة، تأكدّ النصر السريع. إذ إن ساحة «التروكاديرو» تشكل الطابق الأول من «مون فاليريان»؛ إنها تشرف على باريس، وبخاصة على مبنى البلدية الذي يمكن له أن يتحول إلى رماد في عدّة ساعات. بيد أن تحرك الجيش كان صاعقاً، لذا أصبح القصف المدفعي عديم الفائدة. كانت الفرق العسكرية

تفيض من على الجانبين. ذهبت واحدة منها للقبض على المتمردين المتراجعين إلى الضفة اليسرى (من نهر السين) لتفتح أبواب «إيسي» و«فانف»، بينما توجه الجنرال «كلانشان» صوب «قوس النصر» الذي رفع فوقه العلم الفرنسي.

من هنا، أفسحت في المجال ــ جادة «الشانزيليزيه»، كما الأرصفة وضاحية «سان أونوريه» وكلّ الطرقات الأخرى، لإقامة ممرات للفرق العسكرية التي بدأت، بغضب، بمهاجمة ساحة «الكونكورد» و«حدائق التويلوري». عند هذه النقطة، كانت المعركة حامية جدّاً. حتى إنهم أكدّوا لي بأن «الاتحاديين» (المتمردين)، من يأسهم، قاموا بنسف المتراس الموجود في شارع «سان ــ فلورونتان». في الواقع، لقد سمعنا صوت انفجارات عديدة. ويُزعم أيضاً بأن مدرسة هيئة الأركان، الموجودة في شارع «غرونيل ــ سان جرمان»، قد جرى نسفها...

أكرر قولي، بأنها نتيجة سريعة جدّاً وتشكل نقطة تحول. لقد قام الجيش باندفاع مدهش. لكن أيّ معركة مرعبة هي هذه! طيلة اليوم، من «مونمارتر» إلى «الأنفاليد»، زأرت الرشاشات؛ ومن كلّ شارع، تصاعدت موجات الدخان الأبيض التي كانت تلتف بهدوء على أسطح المنازل، لتتمزق عند المداخن. الطرقات مزروعة بالجثث؛ في ضاحية «سان أونوريه»، سالت الدماء مثلما تسيل المياه من الجداول. إنه إحساس غريب وقبيح، إحساس الخشخشة بإطلاق النار في المدينة الكئيبة. أحياناً ينفجر صوت مدفع أصمّ، لكن على فترات متباعدة، كما لو أن الجانبين يملكان الاحترام الغريزي لهذه المدينة المقتولة.

الليل كان أرعب بكثير من النهار. هناك دائماً صوت الانفجارات الجافة والقاطعة، التي كانت، في الظل، تشبه الصرخات الإنسانية. انتظرنا طلوع النهار بفارغ الصبر. لم ينم أحد في باريس. وفي اللحظة التي أكتب لكم فيها، أكدّوا لي سقوط مبنى البلدية وإيقاف غالبية أعضاء «الكومونة»؛ ويضيفون

القول إن الشرسين قد انسحبوا إلى «مونمارتر» وإلى «بلفيل» وإنهم، من هناك، يقصفون باريس. في الواقع، أسمع قصفاً مدفعيّاً عنيفاً، والقذائف تمرّ من فوق رأسي، لتسقط في «الباتينيول»، ويقولون أيضاً إن بطاريات مدفعية قصر بيكون تحاول أن تسكت مصدر النار في «مونمارتر». هذه المقاومة اليائسة، هذا القصف البشع لباريس، وحين يضيع الوطن، يشكل، من وجهة نظري، أكبر الجرائم التي لا يزال يرتكبها أولئك البائسون الذين يوسخون المدينة منذ شهرين.

في أيّ حال، لن يتأخر سقوط «مونمارتر»؛ سيكون الأمر، بدون شك، واقعاً متكاملاً، في اللحظة التي أرسل فيها إليكم رسالتي هذه. ثمة مدفعية مدهشة تقصف «ليه بوت» الآن دون هوادة. على التمرد أن يُسحق في مهده. وحين يُمحى هذا الحيّ المنفر بضربات المدفعية، ستكون هناك حفنة صغيرة من الباريسيين من يبكي عليه. ومن جهة أخرى، إن تطلَّب هذا القصف عُذراً، فإننا نتفهم ــ والحال هي ما وصلنا إليه الآن ــ بأن مجهوداً أخيراً وإن كان كارثيّاً، هو ضروري بشكل مطلق من أجل خلاص باريس سريعاً وبشكل كامل...

لقد تمّ إيقاف العديد من الهاربين، من بينهم الجنرال دومبروفسكي، الذي أصيب بجروح خطرة، وقد تمّ تسليمه إلينا. من بين أعضاء «الكومونة» وخدامها، من أودع سجن فرساي، لغاية هذه اللحظة، هناك آسي ولا سيسيليا وفيرموريل وديليسكلوز إلخ. إلّا أن بعض هؤلاء السادة، ومثلما يبدو، قد نجحوا في الاختفاء. قد يكونون اختفوا في باريس، حيث سيكون من الصعب إيجادهم. وثمة سؤال في أيّ مدخنة يمكن للمواطن فليكس بيا أن يرتجف جيداً وهو الذي يمتلك فن هذا النوع من الاختفاءات الحذرة.

هجر الاتحاديون أمكنتهم بشكل جماعي. كتائب بأكملها انهارت؛ كتائب أخرى استسلمت؛ وثمة أخرى انصاعت للأوامر وهي تحرس الآن أبواب فرساي، وهي التي كانت تحرسها نهار أمس لصالح الكومونة. لم يرغب أحد في إظهار حذره تجاه هؤلاء الشجعان، لكن يجب أن نصدق أنه تجري مراقبتهم عن

كثب. هناك عدد كبير من عناصر الحرس الوطني قد استسلمت في فرساي وقد جرى إعادة هيكليتها وتنظيمها وأرسلت إلى باريس؛ وقد وضعوا على أذرعهم شارة العلم الفرنسي، لتجنب أيّ نوع من سوء الفهم.

هذا الصباح، تمَّت السيطرة بقوة، على المصرف، لمنع سادة هذه الكومونة من أيّ محاولة في الهرب وبحوزتهم ثروة صغيرة ما تسمح لهم بالعيش بطمأنينة في الخارج. الذعر كامل، وعلى الرغم من الاحتياطات الدقيقة التي اتخذت، ثمة شيء يتسرب دائماً من بين خطوط الشبكة. أولئك سيسخرون من الخرقاء الذين سيدفعون ثمن الكؤوس المحطمة، أقصد بذلك المنازل المهدمة والأعمدة المدمرة.

بهذا الخصوص، سأسرّ لكم بأن منزل السيد تييرس من المستبعد أن يكون على الأرض، وبأن الأعمدة التي لا تزال منتشرة فوق أرضه، يمكن لها أن ترمم وأن تقف من جديد. سيتكلف المجلس الوطني بشرف القيام بهذه المهمة.

أتمنى، غداً، أن أزفّ لكم خبر سقوط مونمارتر.

هل هي الهزة الأخيرة التي يتعرض لها بلدنا الحزين؟ هل سنتمكن أخيراً من استعادة حياة شعب كبير، المشغول فقط بتضميد جراحه؟

الفصل 6

الرسالة الثالثة :ليكتمل عمل التطهير!

24 أيار 1871

أيّ حرب كريهة هي هذه! حان الوقت لكي ينتهي هذا الكابوس المرعب. سينتهي الأمر بالجنون بأن يعشش في مخوخ الباريسيين بأسرهم. ولا مرة، اندلعت أزمة مريعة، بهذا الشكل، في مدينة كبيرة. بدأنا بالإمساك، بشكل عام، بمخطط الهجوم الذي انتهى باحتلال باريس. الأخبار التي تتواتر هي دائماً أخبار مشوشة، ومغلوطة أيضاً. بيد أنه من المسموح باستنتاج الحقائق وبالوصول منطقيّاً إلى الأشياء المحتملة والواقعية...

قبل الاستيلاء على باريس، ينبغي تسَيُّد «مونمارتر»؛ فدون ذلك، سنترك للكومونة ممرّ انسحاب طبيعيّاً، حصناً قويّاً جدّاً سيُدافع عنه رجال يائسون ومحاصرون. أضف إلى ذلك، لقد انصبّ نهار أمس، جهد الفرق العسكرية، على «ليه بوت» وقبل أيّ شيء آخر. استمرت المعركة الدامية ثماني ساعات سقطوا في نهايتها بأيدي الجيش؛ نجحت ثلاث وحدات في تطويقهم؛ وكم من الموتى، أيّ ضجيج مريع! تمَّت السيطرة على «الباتينيول» شارعاً فشارعاً، ولحسن الحظ لم يكن باستطاعة المدفع أن يطلق حممه في هذه المتاهة من الشوارع الصغيرة؛ تعرضت المنازل إلى معاناة صغيرة. وحين رُفع العلم، نحو الساعة الثالثة (صباحاً) على طاحونة «لا غاليت»، تنفس الحيّ الصعداء.

ها هو إذن مهد العصيان تحت سلطة جنودنا. إنها نتيجة ممتازة، التي تقطع دابر الحرب الأهلية من جذورها حتى. أعترف لكم بأني انتشيت حين رأيت

الحركة مالت إلى اليسار أيضاً. عُزل المتوحشون، سجنوا في مصيدة الفئران، حيث لا أحد منهم الآن، سيخرج إلّا ميتاً أو سجيناً.

في «لا غار دو نور» (محطة الشمال) دارت أيضاً معركة دامية، انتهت، طبيعيّاً، باحتلال المحطة. جرت أيضاً معركة عنيفة بالمدفعية، بالقرب من «لا مادلين»، على «بولفار ماليرب». تراجع المتمردون لغاية بلدية شارع «درووِ»، وقد قاتلوا بيأس الغضب...

في أثناء ذلك، وعلى الضفة اليسرى (من نهر السين) استمر القتال بعنف متساوٍ. لم يدافع المتمردون، بجدية، سوى عن نقطتين: «محطة الغرب» (لا غار دو لويست) وعلى تقاطع الصليب الأحمر. في محطة الغرب، كان الأمر دمويّاً بشكل مرعب. في هذا المكان، كانت الجثث عديدة، وعند مرتفعات «التروكاديرو»، يمكننا أن نميّز، حول المحطة، هذه النقاط السود، التي تُشكل الضحايا الممددة في غبار الدروب البيض الكبيرة...

من السهل الآن، التيقن من المخطط العام. نهار أمس كان قاطعاً. فالجيش، بانقسامه، إلى عمودين كبيرين، استطاع أن يشكل ملقطاً مدهشاً في قلب باريس؛ تقدم فرعا هذا الملقط، الأول باتجاه الشمال، حيث استولى على «مونمارتر» و«لا شابيل»، والثاني باتجاه الجنوب، حيث وصل إلى «جسر سان ميشال». ليس على الملقط، الآن، سوى أن ينغلق على نفسه كي يسحق حطام التمرد. ومثلما سبق لي أن قلت، ما من متمرد يمكنه الهرب من هذا «العناق» الرهيب.

العصيان محاصر بين هذا الشريط من باريس بما فيه البولفارات والأرصفة، و«ساحة الكونكورد» ومبنى البلدية. علينا أن نعترف بأنهم هنا محصنون داخل قلعة، متكئين على مركزي سلاح يقعان في «مبنى البلدية» و«التويلوري». لا أحد يشك بنجاح (الجيش)، ونأمل بأن يكون ذلك، هذا المساء، أو في أبعد تقدير، أن ينتهي كل شيء غداً صباحاً؛ بيد أن ــ وهذا ما يجعلنا نرتجف خوفاً ــ

التفكير بأن المتوحشين هم هنا، في قلب باريس، وأن بإمكانهم ارتكاب كل أنواع الحماقات. فمنذ هذا الصباح، لم يتوقف إطلاق النار. الجوّ رائع. ويتصاعد الدخان عالياً، بشكل مستقيم، أشبه بعمود رائع. يرعد مدفع ناحية «التويلوري». جادة «الشانزيليزيه» قاحلة تماماً، وهما مغطاتان بكرات من البَرَد. تقصف بطارية مدفعية عائدة إلى «قصر فرساي»، متمركزة في «ساحة النجمة»، «التويلوري» حيث يردّ المتواجدون فيها، بوحشية، ما ألحق الأضرار بنقوش قوس النصر. وعند الطرف الآخر، أمام مبنى البلدية، كان صوت القصف المدفعي صاخباً بدوره. تقصف (ساحة) التروكاديرو القصر البلدي، الكثير من مدفعية البطاريات، الموضوعة على الضفة اليسرى، تصبح كوشاح. ترتجف المدينة، ترتعد أسسها. وإن تجرأت على كتابة هذه المقارنة، لقلت إنهم يضربونها في قلبها في هذه اللحظة، وبأن أمعاءها تهتزّ. مرعبة هي هذه الإساءة التي ترتكبها «الكومونة».

لا يمكن أن نروي عن مظهر باريس. المدينة واقعة في حلم. تجتاز الأحياء بأسرها تيّارات من الرعب، لتفرغ من المارين في ثوانٍ. تمّ الترحيب بالجنود بجنون: حملت بعض النسوة، في الشارع، زجاجات الخمر، والخبز، والنقانق، وقمن بتوزيعها على المحررين. دخول ظافر بكلّ ما للكلمة من معنى. المشهد مختلف بشكل تامّ في نقاط أخرى. ففي الأمكنة التي احتدم فيها الصراع، توجب نشر القسوة بقوة. روي لي أن سكان بعض الشوارع، تمّ احتجازهم جماعيّاً وأرسلوا إلى فرساي، وليس ذلك لاضطهادهم، بل لأنه تبدى، أنه من الضروري، إفراغ بعض الزوايا من قاطنيها. إنها حصة النيران. بدورها، أُفرغت أيضاً أطراف «مونمارتر»، كما أعلى «الباتينيول»، من أجل السماح للمدفعية بالقصف المركز على أرتال المتسللين. صدقوا حقّاً أن ليس هناك أيّ حيوية بعد في تلك الأحياء. كأنها مدن صغيرة ميتة. تضربها الشمس بثقل وكأنها مقابر مهجورة. المنازل نائمة؛ ومن بعيد، شُباك نافذة مليء بثقوب الرصاص يتأرج عند مفاصله، وثمة باب كبير مفتوح، يتيح لنا رؤية ما بداخله المقلوب رأساً على عقب. ما من شخص متنزه واحد. جثث حالمة،

مسحوقة، أنفها فوق الأرصفة. لقد أَعدم، في مشهد مؤثر، بعض أعضاء الكومونة الذين ألقي القبض عليهم خلال المعركة. هذه الإعدامات الفجائية، صنيعة جنود غاضبين.

علينا أن ننتظر كي نعرف الحقيقة بدقة. بيد أن الخشية الأكبر، تكمن في معرفة مصير الرهائن. منذ دخول المجموعات إلى قلب باريس، لم تقم «لجنة الخلاص» بإرسال أيّ إشارة حياة. هذا الصمت المخيف، يُخشى منه أن يدفع البؤساء إلى التحرك. حتى إنني، في هذا الصباح، سمعت أن مركز الشرطة قد احترق. عصبة من الأشرار أضرمت النار فيه، كي يختنق، بداخله، العديد من السجناء الذين أوقفوا قبل شهرين. أعتقد أن المتعصبين قادرون على القيام بأيّ شيء. فهم إن قاموا حقّاً بهذه الجريمة، فسيقوم الجيش، الغاضب منهم، بتصفيتهم لغاية آخر شخص بينهم في ساحة مبنى البلدية. ففي لحظة الحقيقة هذه، العليا، لن يستطيع القادة السيطرة على جنودهم.

ليكتمل عمل التطهير!

الفصل 7

الرسالة الرابعة: باريس تحترق

25 أيار 1871

أكتب إليكم، في خوف حريق مرعب. باريس تحترق. نهار أمس، الواقع في 24 أيار من العام 1871، سيبقى محفوراً بأرقام من حزن في تاريخنا. ولا مرّة، في تاريخ هذه الحضارة المكتملة، عصفت جريمة مروعة، بمدينة كبيرة.

غالباً ما أخبرتكم عن خشيتي. عشت وسط العصابات، وعرفت عن كثب ما يمكن لهم القيام به. كنت أشتم بعض الجرائم الجبانة، وبما أنني لا أصدق الألغام والطوربيدات، فلأن ذلك ليس سوى معدات عسكرية لا نستعملها إلّا بشجاعة ما. لا يمكن لرجال «مبنى البلدية» أن يكونوا سوى قتلة ومشعلي حرائق. لقد حاربوا كقطّاع طرق، هربوا بجبن أمام الكتائب النظامية، فانتقموا من هزيمتهم بتحطيم التماثيل والبيوت. يمكن ملاحقتهم عبر القذارة والدمار التي تركوها خلفهم. وحين وجدوا أنفسهم مطاردين، محطمين، رغبوا في التخفي تحت جريمة كريهة ستلعن ذكراهم على مدى الأجيال. فجأة، وكتحية وداع قصوى، ارتكبوا ــ دفعة واحدة ــ كل الشرّ الذي كانوا يعدّون القيام به منهجيّاً، فيما لو تركناهم لفترة بعد، في السلطة.

في كلّ لحظة، يشتدّ حصار الجيش، وتتلاشى عنده خطوط الدفاع.

حينذاك، نفّذ المتمردون تهديدهم المروع بإحراق باريس بدلاً من أن يسلموا أنفسهم. اندلعت النيران من عشر إلى خمس عشرة نقطة في الوقت عينه. لقد انصاع التعساء بالتأكيد إلى أمر ما. ومع ذلك، فإن نمط التخريب هو ذاته

في كلّ مكان، ما يجعل من هذه الحرائق المتعددة تنفيذاً لأمر ما. لقد استعمل النفط في كل مكان؛ لقد أفرغ المتحالفون براميل كاملة على الأراضي الخشبية؛ فيما قام آخرون منهم، كانوا متسلحين بفراشي سميكة ــ وقد شوهدوا يفعلون ذلك ــ بدهن الجدران بطبقة كثيفة من مادة قابلة للاشتعال. إنه هيجان كبير، كابوس مرعب، كائنات مجنونة غاضبة تنشر مطراً من نار فوق المدينة المحتضرة.

فجأة، وبعنف غير مسبوق، اشتعلت «التويلوري»، وزارة المالية، مجلس الدولة، قصر جوقة الشرف، قصر الخزينة، القصر الملكي، مركز الشرطة، مبنى البلدية. بلحظة، ارتفعت ألسنة اللهب إلى ارتفاع شاهق. وغطيط الدخان امتدّ في أمكنة عدّة. على الرغم من الشمس الحارقة، كان بالإمكان تمييز الأعمدة، ركائز اللهب هذه، المدهشة، التي كانت ترتفع إلى السماء، كما لو أنها تسند بنارها المحمرّة القبة الزرقاء. لاحقاً، انتشرت غيمة الدخان فوق باريس بأكملها لتخفي الشمس، كانت أشبه بضباب ملعون، ومن هذه الغيمة ذات اللون الصدئ، المليئة بألسنة اللهب المشتعلة، تساقط ثلج أسود من فتات الورق المحترق. كم فقدنا من غنى تاريخي في يوم واحد! لملمت وثائق وعناوين من كل نوع، خرقاً خفيفة مبللة بالغاز بإمكاننا أن نقرأ عليها بعد، جملا مكتوبة.

حين غطت باريس صرخة: «التويلوري» تحترق، «متحف اللوفر» مُعرّض للاحتراق!، كان الاستياء كبيراً، ورأيت أناساً، بقوا لغاية تلك اللحظة على الحياد، يتراكضون مع الحشود إلى المكان الحزين، كي يحموا ثروتنا الفنية، مُتحفنا، أكثر متاحف أوروبا اكتمالاً. وكانت المجموعة عند حُسن الظن، تمّ إنقاذ اللوفر. لكن لم يتبقَّ من قصر التويلوري واقفاً، إلّا جناح الـ «فلور»، الذي شيّد مؤخراً. فيما انهار جناح «لورلوج» (جناح الساعة) عند الساعة الرابعة. ومن ناحية وزارة المالية، لم يعد هناك سوى بعض الجدران المسودة.

يتراءى مبنى البلدية أقل ضرراً. ومع ذلك، لا يمكن لغاية الآن، أن نقوم بجردة دقيقة لهذه الكارثة...

كان هدف المتمردين حقّاً إزالة باريس. يخيف هذا الحلم المرعب المخيلة. أملوا بأن ما يكفي هو إشعال التماثيل العامة لتصبح مصابيح كبيرة مشتعلة، كي تتخاطب النيران مع منازل المدينة ولكي تختفي المدينة بأسرها، من حيّ إلى آخر، من جرّاء اللهب. من ثمّ، وبما أن المباني لن تُحرق المدينة كلها بسرعة من دون شك، انتشر المتمردون، وفق مجموعات صغيرة في الشوارع وحاولوا أن يرموا القنابل الحارقة داخل المنازل عبر منافذ التهوية. في عدة أمكنة، أوقف الكثير من الرجال، وحتى بعض النساء والأطفال، الذين كانوا يحاولون تفعيل الحريق بهذه الطريقة. ومثلما رأيتم، إنها جريمة منظمة. ثمة ملّاك بدؤوا بحراسة منازلهم، والبنادق بأيديهم، مهددين بإطلاق النار دون رحمة عل كل شخص مشتبه به يحاول الاقتراب من تلك البيوت.

عند الظهيرة، وصل رجال الإطفاء من الضواحي بأعداد كبيرة. قالوا لنا، بأن برقيات عاجلة قد أرسلت، على وجه السرعة، إلى خمسين مركزاً لتطلب، من جميع وحدات الإطفاء، التحرك بعجل من الضواحي المجاورة. وإن دلّ ذلك على شيء، فهو يدلّ على قلق الحكومة الكبير. ففي باريس، وفي الأحياء البعيدة عن المركز، تعيش داخل الرعب، إذ إن الجميع هناك، يدركون ما جرى للمدينة، وبأن العصيان سينشر في الساعات القليلة المقبلة عمله التدميري.

أتخلّى عن ذكر ما هي عليه حالة باريس. لقد أمضينا الليل في ظلّ شروق دامٍ. كانت السماء شاحبة، يلفّها النحاس عبر اقتراب عاصفة رهيبة يخترقها لمعان أحمر يضيئها بشكل كبير. لم يتوقف صوت إطلاق النار. نتخابط في هذه الفزاعة، تحت هذه السماء الشيطانية التي تجعلنا نحلم بكل أنواع رعب جحيم دانتيّ (نسبة إلى دانتي). أبداً، ما من مرة هزّ كابوس مماثل أيّ شعب،

مثل هذا الكابوس، فمخيلة الشعراء الأكثر عتمة تبدو قاحلة بالنسبة إلى هذا الواقع، إلى هذه المعركة الغاضبة في نور هذه الحرائق المتوحش.

الحياة متوقفة. باريس، هذا الصباح، بدون خبز. لكن باريس لا تحلم بأن تأكل. السكان، المحاصرون في منازلهم، يستمعون إلى آخر تشنجات المعركة. للحظة، ظهر رأس مرتعب، من إحدى النوافذ، متفحصاً السماء المشتعلة، ناظراً ما إذا كانت الحرائق لا تزال بعيدة بعد. في الشوارع القاحلة، بعض الحشريين يسيرون مسرعين على طول الجدران، ما من حانوت فاتح أبوابه. فكرت بـ بومبيي حين كان بركان فيزوف يتقيأ حممه وحين كان مطر من رماد يغطي المدينة الكئيبة.

الجنود غاضبون؛ ولو تركناهم يتقدمون إلى الأمام، لاجتازوا النيران كي يذهبوا ويخنقوا بأيديهم أولئك التعساء الذين ينتقمون لهزيمتهم بشكل مجرم. ومثلما قلت لكم البارحة، يجب ترك العدالة السماوية تأخذ مجراها. فمن يحرق ويرتكب المجازر، لا يستحق أيّ حكم آخر سوى حكم نيران جندي.

أُخمد العصيان. أعدنا، أمس، السيطرة على التويلوري والقصر الملكي، كما على كل الضفة اليسرى (لنهر السين). وفي هذه الساعة التي أكتب لكم فيها، على العلم الفرنسي أن يرفرف فوق المبنى البلدي.

في هذه الأثناء، لا يتصارع سوى المجانين والحمقى. لم تردنا بعد أيّ أخبار عن المحتجزين، لكن أناساً يحرقون مدينة، لا يمكن لهم أن يتراجعوا أمام مجزرة بحقّ السجناء. وهذا ما يثير القلق الكبير، وعلينا الانتظار! لن نعرف اتساع الجرح، بكل رعبه، إلّا حين تنتهي المعارك. من يعرف ما سيكون عليه المشهد الختامي بعد فك هذه العقدة؟ العقدة هذه موجود هنا، نتلمسها باليد، وفي أثناء ذلك، وحين نستمع إلى أصوات المدافع الأخيرة، نشعر برعشة مميتة، ونسأل إن كانت باريس ستصبح غداً مقبرة مليئة بالجثث والحطام المنبعث منه الدخان، أو حقلاً ملعوناً وقاحلاً، مثل حقول بابل وطيبة.

الفصل 8

الرسالة الخامسة: الرعب في القمّة

26 أيار 1871

الرعب في القمة. لم أعد أشعر بالشجاعة تقريباً، كي أكتب لكم. في انهيار باريس هذا، في هذه الجريمة التي تتخطى كل الرعب الذي خشيناه، ثمة لامبالاة سامية تولد عند التفاصيل الثانوية. ننتظر بدهشة أن تُحل هذه العقدة.

لسنا أمام قضية مقاتلين، بل أمام مشعلي حرائق. آخر جنود الكومونة يتحصنون في إحدى زوايا باريس. لكن، وفي الأحياء التي استعيدت، لا يزال يتجول بعض السفاحين الذين لم يتمّ إيقافهم بعد والذين تنكروا بزيّ حرس النظام الوطني أو اعتبروا أنفسهم ببساطة بعض الحشريين الذين يتنزهون (لرؤية ما جرى). ملأ هؤلاء جيوبهم بالقنابل وبقناني النفط التي رموها بسرعة في أقبية المنازل. هناك الكثير من النسوة نشرن الحرائق أيضاً. تمّ القبض أيضاً على أشخاص متنكرين بزيّ رجال الإطفاء وكانوا، بحجة أنهم يطفئون النيران، يرمون بخراطيمهم زيتاً معدنيّاً على البيوت المشتعلة. بشتى السبل، يحاول المتمردون جعل باريس دماراً مشتعلاً ساحقاً.

يرتفع منسوب الذعر في كل ساعة. منذ البارحة، لم تتوقف مرتفعات شارون وبلفيل، ولا حصون مون روج وبيسيتر، من إرسال القذائف إلى وسط باريس. حتى إنها سقطت في حيّ الهال. تجتاح ألسنة اللهب المدينة بسرعة منهكة. النيران التي تُخمد في حيّ تعود لتشتعل في حيّ آخر، كما لو أن فتائلها المخفية تحت الأرض تلتهب بشكل متعاقب. في الليل، تضيء السماء

الحمراء الشوارع حيث لا مصباح غاز مضاء! لا يمكنني أن أعطيكم أيّ فكرة عن هذه اللوحة المرعبة...

في باريس، نعرف حقيقة الأمر بشكل أقل دقة ممّا يعرفه قصر فرساي. نعيش عاطفة توقف الرؤوس عن العمل، تعطي انطباعاً للضجيج الأكثر مبالغة. الشرّ الذي ارتكب كبير لكي لا نبالغ فيه. وهكذاـ أعتقد أنه يمكنني أن أؤكد لكم بأن مبنى البلدية، عانى بشكل صغير، وبأن قصر العدل لا يزال واقفاً، وبأن اللوكسمبور لم تُدمر، حاولت أن أتبيّن الأمر من بعيد، من بين الدخان، السهم على قبة «السان ــ شابيل»؛ بيد أنه يمكننا أن نأمل بعد بأن نجدها سليمة غير مصابة. أما بالنسبة إلى «النوتردام»، فلم تتعرض للأذى. وما إن أتمكن من ذلك، فسأذهب كي أطمئن بأمّ عينيّ...

في المحصلة، ولغاية الآن، يتبدّى لي أن نقطتين قد عانتا بشكل خاص، حيّ التويلوري والحيّ المقابل له، الواقع إلى الجانب الآخر من نهر السين، بالقرب من شارع «دو باك». حول التويلوري، وهي النقطة الأكثر تعرضاً للدمار، نجد أن الحريق تنزه في المقرّ الملكي (الباليه رويال) في الشارع الملكي؛ في هذا الشارع صفّ من المنازل المدمرة؛ فمظهر شوارعه العريضة، الغنية جدّاً والصاخبة جدّاً، هي اليوم مكتسية بحزن مزرٍ. وإلى الجانب الآخر من المياه، شارع ليل يشتعل. تحترق الأرصفة كأنها سيل من البارود. لقد عرف المتمردون جيداً أنهم إذا هدموا هذا الحيّ فهم يصيبون باريس في قلبها.

وخارج هذا التجمع، لا نجد أبداً حرائق معزولة، لا في مركز الشرطة، ولا في مبنى البلدية، ويقول البعض في البانتيون أيضاً.

ويظهر أن بعض المباني الخاصة قد دُمرت بدورها. لقد انهمك المتمردون بتحطيم كل نفيس وجميل. دائماً هناك هذا الطمع الحادّ عند الشخص التعس الذي لا يملك شيئاً. لذا كانت محلات «اللوفر» و«بوتي سان ــ توماس» و«بيغماليون» فريسة ألسنة اللهب. ربما هناك انتقام نسائي. فكل هذه

المحلات الكبيرة التي تعرض آخر صحيات الأزياء، قد دُهنت بالنفط، وهي تجعلني أفكر بمؤامرة بعض عصابات «السليطات المربعات»، اللواتي لم يستطعن يوماً ارتداء فستان من حرير...

يستمرّ الصراع دون هوادة. وبدأنا بالتعرف على بعض فصول هذه الحرب الكريهة.

حدثت معارك في عدة كنائس، في المادلين»، «الترينيته»، في «سانت ـ كلوتيلد». تحولت كل واحدة من هذه الكنائس إلى حصن حقيقي. لزم الأمر مدفعاً لخلع الأبواب. زرت كنيسة «المادلين» بعد انتهاء المعارك: كرسي الوعظ مثقوب بالرصاص، وأُخبرت بأن ضابطاً من الاتحاديين أعدم على الواقف تقريباً؛ الكراسي مقلوبة، محطمة ومليئة بالدماء؛ ثمة بحيرات حمر على بلاط الكنيسة، ما جعلني أعتقد، بأن المذابح (مذابح الكنيسة حيث تقام الصلاة)، في لحظة ما، تمّ استخدامها كمتاريس. أمر مقرف، يلزم الأمر عملية تطهير كبيرة لنتمكن من إعادة عبادة ربّ السلام.

معارك أخرى شهدتها أيضاً محلات «دو برانتون» (الربيع) كما حوانيت «الأوبرا الجديدة». إلّا أن الأبواب بقيت موصدة، وقيل لي إنه تمّ نقل عدد كبير من الجثث من هناك. وذاك يعود في الواقع، إلى الأوامر التي أعطيت، بأن لا يبقى هناك أموات في الشوارع. وفي تلك الأثناء، وعند بعض النقاط، سوِّي أمر الأموات، بوضعهم صفّاً على الأرصفة، على طول المنازل. يسرع المارة في خطاهم. ومع ذلك، بقي شكل باريس كما كان عليه نهار البارحة، هذا إن لم يكن الرعب، قد اجتاحها بشكل أكبر. بدأت المؤونة بالتناقص بالطبع.

الجيش يتقدم، تقلصت مساحة الضفة اليسرى، وعلى الضفة اليمنى لم يعد يسيطر الاتحاديون إلّا على الزاوية الشمالية ـ الشرقية. فـ «الألمان» الذين احتلوا فانسان، يقومون بالحراسة بشكل كبير. سنسحق مخلفات الكومونة على الحواجز عينها. إنها مسألة ساعات فقط.

يؤمل بأن يتمّ إبعاد كل أعضاء الكومونة من هناـ كل قادتها، كل محركيها. من البدهي أن يكون المتواطئون معها قد لجؤوا إلى مراكز المحاربين. إلى هذه الساعة، لم يتمَّ الإمساك بالمذنبين الكبار. أُعدم كل من راوول ريغو وميسلان وفايان، بعد أن جردوا من أسلحتهم؛ أوقف أيضاً، في مبنى البلدية، فيرموريل وفاليس. لكن الحساب لم يقفل بعد، صيد الشبكة الأخير سيكون أفضل من دون شك.

القلق على مصير المخطوفين يعتري الجميع... كم أنها قبيحة ساعات القلق الأخيرة هذه! تكمن الرغبة في أن تعود المدينة حرّة أخيراً، كي نتمكن من قياس حجم الكارثة ولرؤية ما يمكن إصلاحه.

الفصل 9

الرسالة السادسة: باريس في حالة ذهول

27 أيار 1871

انتهى الأمر. باريس في حالة ذهول. بعد الأزمة الرهيبة، يسيطر على المدينة انخساف مميت. حزن كئيب يلقي بظلّه فوق البيوت. نتنقل فوق الخراب، على خطى الظلال المتثاقلة. الحشد، كبير، على بعض النقاط، يتطلع إلى احتراق المباني بنظرة حمقاء، حتى من دون أن يعمل على إنقاذ ما تبقى من حطام أخير. عند هذه الدرجة من البؤس، نصبح كالبهائم. عشش الخوف في الرؤوس بعنف لدرجة أن العضو الإنساني والاجتماعي، سيذكر لفترة طويلة هذا التقويض المرعب.

في الأحياء الشرقية، يُسمع إطلاق نار خفيف. منطقة بلفيل، وبعد أن قُصفت وتعرضت لوابل الرشاشات، استسلمت، إلى الرحمة. المقاومة كانت كبيرة ما بين مينلمونتان ومقبرة الأب لاشيز. العصيان يحتضر في مقبرة، ولن يكون على الجثث الأخيرة، أن تقوم بسفر طويل. على الضفة اليسرى، انتصرت مجموعاتنا. استولت على الحصون. ليس أمامنا الآن سوى إخماد الحرائق.

علينا انتظار نتائج التحقيقات، مع بعض المذنبين، لنعرف بدقة، حقيقة هذه الحرائق العملاقة التي التهمت باريس. من الواضح، أن هناك منظمة خفية، قد ترأست هذه الجريمة. وكما يبدو، كانت هناك، فرقة خاصة مكلفة بتدمير المدينة وحرقها. جندت ــ لذلك ــ العديد من النساء. رافعات النفط والزيوت المعدنية، التي حدثتكم عنها مؤخراً، والتي كنت أظن أنها صُنعت من أجل مواجهة احتمال النقص في غاز الإضاءة، لم يكن لها من هدف سوى وضع

المواد المشتعلة بين أيدي مشعلي الحرائق... لا أحد، لغاية الآن، يعرف الحقيقة كاملة. لقد نجت باريس من تدمير شامل. اكتشفت ألغام ذات قدرة غير مسبوقة، في المجاري وفي أقبية بعض المعالم الأثرية. هذا العمل الذي جرى في باطن الأرض، هذه المعدات التي لا أستطيع تصديقها، كانت على أهبة الاستعداد؛ فعلى الرغم من أنهم كانوا يقاتلون بشكل سيّئ في وضح النهار، إلّا أن المتمردين أظهروا عبقرية كبيرة ونشاطاً جهنميّاً في عملهم بالحفريات تحت الأرض. من دون شك، لم يجدوا الوقت الكافي، لحظة الانهيار، في إكمال عملهم المنهجي، لذا بقي العديد من الأحياء، التي كان محكوم عليها بالإعدام، بقيت واقفة.

بعد الرعب الأحمر، يسيطر على باريس الآن رعب جديد وخاص، سأسميه رعب النار. يشعر السكان بأنهم يسيرون فوق بركان. وبرغم أن الجيش انتصر، إلّا أن الناس في الأحياء التي استعادها الجنود، يرتعدون (من الخوف) وينتظرون انفجارات مرعبة. ثمة إيمان عنيد عند العديد منهم، بأن مشعلي الحرائق لن يتوقفوا أبداً، حتى بعد إعادة فرض النظام، وبأنه لأشهر كثيرة مقبلة، ستعود الحرائق لتنتشر عند العديد من النقاط في باريس. نصف المدينة يخشى نصفه الآخر. ومثلما يطارد الجواسيس البروسيون، تتمّ مطاردة مشعلي الحرائق. لو كان حظنا سيئاً وتوقفنا قبالة شقّ في جدار، سرعان ما نرى النظرات القاتمة تتثبت عليك وتتقصى أدنى حركاتك. رعب كريه لا يترك ساعة للراحة وهو ما يجعل من باريس، في هذه اللحظة، سجناً قاسياً، نوعاً من جناح مجانين عملاق، حيث السكان يتشاجرون بين آخر جدران المدينة.

نجحت بالقيام بنزهة في باريس. الأمر مرعب. لن أعاود الحديث عن المشاهد المبكية التي تجدون وصفاً لها في كل الصحف. أرغب فقط في أن أحدثكم عن أكوام الجثث التي كُدست فوق الجسور. لن أنسى أبداً الكره الذي حزّ في قلبي، وهو الإحساس التي شعرت به أمام هذه الأرتال من اللحم البشري

الدامي، المرمي إلى الصُّدفة على درب الإبحار. تختلط الرؤوس بالأعضاء بتفكك مرعب. أشياء كثيرة تخرج من الوجوه المتشنجة، البشعة بشكل مطلق، الضحكات على أفواهها السود والفاغرة. أقدام مرمية، هناك أموات يبدون وكأنهم قطعوا إلى نصفين، بينما آخرون يظهرون بأن لديهم أربع أقدام وأربع أذرع. أواه! مقبرة جماعية محزنة، وأيّ درس هو هذا، بالنسبة إلى الشعوب المتباهية الباحثة عن المعارك...

عدد كبير من هؤلاء التعساء صنعوا هذه العدالة. ميلليير، فيدال، فاليس، أمورو، فايان، لوفرانسيه، جورد، وآخرون عديدون نسيت أسماءهم، ألقي القبض عليهم وأعدموا بالأمس. أعلن أيضاً عن موت الرسام كوربيه، الذي مات مسموماً في سجنه، بحسب البعض، وبحسب البعض الآخر فقد مات بسبب سكتة دماغية. لا أصدق قصة السُّمّ. كان كوربيه رجلاً كبيراً، متفاخراً وأحمق، دغدغه الإيمان بنجاح الكومونة، وتورط في تسوية مع الأمل، إذ يسوده منذ فترة طويلة أمل أن يصبح وزير الفنون الجميلة؛ بيد أنه لم يكن مصنوعاً من طينة الشجعان الكبار ولا من طينة المتعصبين الثوريين. آه الرجل المسكين! إنهم أصدقاؤه، وعبر ادعاءاتهم عن الفن الاجتماعي، الذين رموه في هذه الكارثة المرعبة. كان شارباً كبيراً، سمن من جراء البيرة، لكنه ناعم كطفل بمنكبيه العريضين، لم يكن سوى فلاح مراوغ، مديني حطّ به الدهر، رسام كبير مأخوذ برسوماته. لكُنتُ أطلقت سراحه، فارضاً عليه، كعقاب، أن يتلو كل عام صلاة التاسوعية (صلاة الأيام التسعة) أمام الأعمدة التي أعيد ترميمها. تبدو لي قصة السكتة الدماغية منطقية أكثر، لأن نتائج طيشه قد خنقته، ما إن أحس بعنقه السمين والقصير بين أصابع الجلاد. أعترف لكم، أشعر بالأسف على هذه الميتة. يجب أن نكون على معرفة بهذا الرجل قبل أن نعرف الطفل الذي كانه، بلهجة أهل الفرانش كونتيه الكثيفة. توجب على هذه الدراما أن تكون متكاملة وبأن ينجح هؤلاء التعساء ـ الذين رغبوا في حرق متحف اللوفر ـ بأن يجعلوا واحداً من أكثر الفنانين إدهاشاً في العصور الحديثة، شخصاً مجنوناً.

الليلة الماضية وطيلة هذا اليوم، اعتقدنا أن المتمردين قد أشعلوا حيّاً في باريس. لم تكن السماء قد تلوّنت بعد بهذه القشرة الدموية. نحو منتصف الليل، سرت شائعة إيجابية بأن بحراً من دم يلفّ ــ في الأعلى ــ أمواجه الحمر. لم يغلق أحد جفنيه، إذ إن كلّ شخص، قام بالحراسة، أمام باب بيته. لم يسر الهدوء إلّا قبل لحظات. أعلمنا أن هذا الحريق المريع حدث في مسلخ «دو لا فيليت» وبأنهم ألقوا القبض على مسبب الحادث.

هل تعدنا السهرة بكارثة جديدة؟ سكتت أصوات المدافع، والأهالي عاودوا الأمل. ثمة همهمة بأن صحافيين، كانوا أسرى الكومونة، قد أعدموا بالقذائف.

الفصل 10

الرسالة السابعة:الرعب في حلقي

28 أيار 1871

أعود من جولة طويلة مخيبة للأمل. كنت أعرف بأن معركة دامية دارت في مقبرة «الأب لاشيز». ثمة تفاصيل كارثية من هناك. غرر بي رعب العرض، فرغبت في أن أرى إن كان لا يزال هناك فيّ بعض العاطفة والشفقة، بعد اللوحات الرهيبة التي رأيتها تحدث أمام عينيّ. سرت على البولفارات الخارجية. الطريق غير آمن بعد. على الرغم من هزيمة العصيان، إلّا أنه بين الفينة والأخرى، تُسمع صوت طلقات نارية من بعض النوافذ، وبخاصة في الأحياء الغريبة الأطوار. دلوني، عند حاجز «البواسونييه» القديم، إلى طاقة قتل منها، في الصباح، أحد المتمردين شابّاً كان يسير في الشارع؛ أُلقي القبض على المتمرد وأُعدم. رأيت دماء ذلك الشاب على الرصيف. لذا سرت بحذر كلّي، وبعين يقظة كأنني في بلد عدوّ...

أخيراً، وبعد ثلاث ساعات من المسير، وبعد أن أوقفني الدمار لأكثر من عشرين مرة، استطعت الوصول إلى أعلى شارع «لا روكيت». قبالتي كان ينتصب مسرح الجناز الواسع، التلة حيث الموتى يحلمون وهم ينظرون إلى باريس تحيا عند أقدامهم.

الجدران مصدعة، إلى اليسار حفرت قذيفة فتحة مهيبة. لن أفقد يوماً ذاكرة هذه الأشياء؛ دلفت إلى المقبرة عبر الباب المشرّع، إذ قطع مدفع أوصاله الحديدية ورماها أرضاً. تذكرت نزهة قمت بها يوماً في هذا المكان، قبل ثلاث سنوات، في شهر أيار، بسبب حشرية أدبية؛ جئت يومها لمشاهدة قبر ألفريد

دو موسيه، في ذكرى يوم رحيله، ولكي أقدم تحية مباشرة، لشاعر شبابي. ما هذه الصبيحة المشرقة التي كان عليها ذاك النهار! أذكر أشعة الشمس، الهواء الساخن الذي يلفّ أوراق الشجر الشابة، يلفّ غبطة الموتى، الأموات الفقراء الذين كانت قبورهم تبدو وكأنها تلقي السلام على الربيع، عبر رعشة كونية. تنزهت مطولاً، بفرح خطير، ناظراً إلى باريس في البعيد، حاسداً صمت التلّة المقدسة وسلامها، مستفيداً من هذا الموت السعيد كي أستمتع بهذه السماء الزرقاء. ألم تقضوا بتاتاً صبيحة كهذه، في مقبرة، كان يهتزّ فيها نسغ الشجر؟ يقال إن الأموات يضحكون من تحت الأرض ويرسلون دماءهم لتلوّن الأقحوانات على المنحدر.

لكن ما هذا التناقض اليوم! القبور محطمة، الورود مهروسة بكعاب المقاتلين. وكأن إعصاراً مرّ في حقل الراحة هذا لينجح في قتل الأموات مرة ثانية. فوق كارثة التدنيس هذه، تصنع السماء الرمادية فطيرة من الحزن.

لقد سحب الاتحاديون إلى هنا كل ما تبقى لهم من أسلحة. نصبوا بطاريات المدفعية فوق الممر العالي الذي يمرّ أمام قبر ديميدوف. لا تزال المدافع موجودة هنا، في فوضى رهيبة، مرمية على الجانبين، وأفواهها غارقة في الأرض. من هذا المكان، وعلى مدار يومين، رموا قنابل النفط على وسط باريس. مكان غريب حقّاً لتنفيس هذه الحاجة في التدمير: فمن خلف قبر كانت تخرج نيران الحرائق المميتة. ديس كلّ هذا الجانب من المقبرة، كما لو أن معركة متوحشة قد دارت جسداً لجسد. هنا وهناك، مستنقعات من الدم، جثث لم يعبأ أحد برفعها من مكانها. رأيت طفلاً في السابعة عشرة من عمره، ممدداً فوق حجر أبيض، مكتف الذراعين، شبيهاً بهذه التماثيل المريرة التي كانت تُوضع في العصر الوسيط فوق المزارات. وفي مكان أبعد، سقط أحد أفراد الحرس الوطني على سنان أحد الأسيجة، الحادة، ولا يزال معلقاً فوقها، مشطوراً إلى نصفين، وكأنه ثور معلق عند لحّام. انبجست الدماء فوق تيجان الخالدين، وعلى طول الرخام، كانت هناك بصمات أصابع دامية، كما لو

أن شخصاً بائساً، تعرض للتعذيب حتى الموت، فاستند إلى ركائز البلاط، قبل أن يقع.

لا يمكنني إخباركم بكل شيء، إذ إن الرعب يخنقني ويمنعني من الكلام. ليتمّم حفارو القبور أعمالهم بسرعة، ولتستعد المقبرة حلمها الصامت والآسف! لن تتمكنوا من تصور التأثير الذي تحدثه مذبحة مماثلة في مقبرة. عادة، لا نجد هنا، إلّا الذكرى الحزينة على راحلين لم يعودوا على قيد الحياة، فهذا العرض الفجّ للجثث المشوهة، يُجرّح إيماننا الرهيف بالموت. إنها مجزرة، بعثرتها البنادق الرشاشة، ملطخة بالدم، إذ لم يعد المكان ملجأ مخضرّاً، معتنى به، يأتي إليه الأرامل والأيتام كي يستطيعوا أن ينزهوا فيه آلامهم وذكرياتهم.

ارتكبت المدافع الكثير من الخراب. رأيت العديد من القبور المثقوبة من جانب إلى آخر، الممرات مليئة بحطام الأسوار الحديدية والتيجان المحطمة، وشظايا الرخام. انفجرت قنبلة في كنيسة، لتحيل المذبح إلى رماد؛ بيد أن هذا الخراب ليس شيئاً فيما لو قارناه بتحطيم القبور الأكثر تواضعاً. فلكي يتحصن المتمردون بقوة أكبر، انتزعوا كل أضرحة القبور التي استطاعوا رفعها من الأرض. شاهدت متراساً مصنوعاً من هذه الأضرحة، لا شيء أكثر من هذا لإثارة الحزن؛ لا يزال بإمكاننا أن نقرأ عليها خطوط الشواهد، وعلى واحد منها، استطعت قراءة اسم فتاة شابة، ماري ــ لويز موران، «توفيت في ربيعها السابع عشر». هذا المتراس المصنوع من القبور، سيبقى عالقاً في روحي، بمثابة قمة الكارثة المرعبة، بمثابة صورة عن هذا العصيان الذي ــ وبعد أن أحرق مدينة ــ قام بإيقاظ الأموات، لينتزعهم من راحتهم الأبدية، قبل أن يموت هو نفسه وقبل أن يختفي في لعنة كونية...

أكد لي أحد الضباط، أن قبر ألفريد دو موسيه، أصابته قذيفة. يا أيها القبر المسكين، كم من الأيادي الجليلة كانت أتتك، كل عام، لتحمل إليك أزهار البنفسج، وكم أن الحرب قشرتك في هذا الفصل الربيعي اللعين! تأملت من

أعلى التلّة، باريس، التي لا تزال تحترق، وأمام هذه التماثيل المتردمة، أمام هذه الأكفان المغتصبة، أمام بؤس الأموات والأحياء العميق، يتصاعد النحيب إلى حنجرتي: تساءلت باكياً إن لم يكن تحت قدميّ قبر سحيق دُفنت فيه فرنسا بأسرها.

الفصل 11

الرسالة الثامنة: ليرحمنا اللّه من الطاعون!

29 أيار 1871

ما كادت باريس تنجو من أهوال الحرب الأهلية، حتى استولى عليها خوف جديد. بعد استرداد «بلفيل» وبعد احتضار آخر الاتحاديين بهذا الشكل العارم، توجّب علينا أن نقع تحت تهديد كارثة أخرى. فبعد أن سرقت العصابات المدينة الكبيرة وأحرقتها، ها هم ينتنونها بجثثهم. يُخشى أن تعود الكوليرا إلى الحياة من هذه المذبحة الرهيبة. حتى في تعفنهم، يصيبنا هؤلاء التعساء بالشرّ.

كانت المجزرة مرعبة. فجنودنا ــ الذين اختنقوا من جراء الحرائق، والذين تسمموا في أماكن الطعام والذين قتلوا في الشوارع من قبل نساء (متنكرات) ــ فرضوا في الشوارع عدالة صارمة. كل شخص حمل السلاح بيده، تمّ إعدامه. بقيت الجثث متناثرة في كلّ مكان، مرمية عند زوايا الشوارع، وقد تحللت بسرعة مدهشة، وذلك عائد من دون شك، إلى حالة الثمالة التي أصابت أولئك الرجال. ليست باريس ــ ومنذ ستة أيام ــ سوى مقبرة كبيرة، تنقصها الأيدي كي تكفن الأجساد. في كل الشوارع، شاهدت الجثث، والحصيلة لغاية الآن، عشرات الألوف.

لا يشكل هذا سوى عدد المتمردين، أي لم نحصِ معهم بعد، الخسارات الجدية التي تكبدها الجيش، ولا السكان سيئو الحظ الذين أصابتهم القذائف، ولا الذين اختنقوا بالحرائق، أو الذين ماتوا من الجوع، أو من الخوف في قعر

مخابئهم. والقول إن عدد الجثث المكدسة بدون كفن في باريس، هو لغاية الآن، عشرون ألفاً على أقل تعديل، يبقى، أعتقد، رقماً غير حقيقي.

أتتخيلون أيّ مسكن للعدوى يمكن أن تشكلها كومة مماثلة من الأجساد، في أولى أيام طقس حار؟ لا أعرف إن كانت الذاكرة المضطربة تلعب دوراً في ذلك، إلّا أنني وأنا أمشي وسط الدمار تنشقت هذه الأنفاس الثقيلة المليئة بالروائح الكريهة التي تحفّ أرض المقابر وقت العاصفة. بدت لي باريس مثل مدينة أموات كئيبة حيث لم تستطع النيران تطهير الموت. تتهادى روائح مشرحة باهتة على الأرصفة. لم تعد لغرفة أوروبا، لنُزلها ـ مثلما كان يطلق على باريس إبّان عهد الإمبراطورية ـ عطر الكمأة ولا مسحوق الأرُز، بل ندخلها، ونسد خياشيمنا بأيدينا، كما ندخل إلى بالوعة مثيرة للاشمئزاز حيث العفن يغلي تحت السماء الرصاصية.

طالب الجنرالات بصرخات عالية بضرورة إيجاد حفاري قبور. إلّا أن ثمة خشية من الطاعون والكوليرا، حتى وإن تمّ دفن كل الجثث في المقابر الموجودة. يتطلب العمل وقتاً طويلاً، والأراضي الفارغة ليست عريضة بما يكفي. بانتظار ذلك، يتمّ دفن الأجساد الأقدم، التي تسبب العدوى، في الحدائق والساحات. عند برج القديس جاك، رأيت هوة واسعة حُفرت وسط مرج. قيل لي إنهم دفنوا أمواتاً، في عدة مواقع، على البولفارات، في كل الجادات التي تمكنوا من حفرها. لا أعرف إن كانت هذه الجثث ستبقى هنا، تحت أقدام المتنزهين، الذين سيستمعون بفرح إلى رنين كعابهم قرب رؤوسهم، في أيام الأعياد الشعبية. أيّ قدر غريب هو قدرهم: أن يدفنوا إلى الأبد تحت كعاب هذا الشعب الذي أمسكوا بخناقه على مدى شهرين!

هؤلاء الأموات الذين وضعوا في كل مكان، حتى في المسارح الصغيرة، يثيرون قلقاً كبيراً، عمّا إذا كانت الحكومة، ترغب في حرق جثامينهم، جماعيّاً، وسط «شان دو مارس». سيشكل ذلك الأمر، وسيلة ممتازة، للتخلص منهم. لكن، وللأسف، فإن عمليات الحرق، التي جُرّبت سابقاً، مرات عديدة، خلال

الحروب الكبرى، لم تنجح يوماً إلّا بطريقة ناقصة. فالأجساد البشرية، وبخاصة حين تكون بأعداد كبيرة، تحترق بصعوبة كبيرة. يلزم الأمر، جزاراً، لكل جسد، وسيستغرق ذلك شهراً بأكمله. ومع ذلك، تُجرى في هذه اللحظات، تجارب في «شان دو مارس». اقترحت إحدى الصحف استخدام السجناء، لتنفيذ هذه الحاجة الملحة، في حرق جثامين الموتى. أعتقد أنه من المفيد جدّاً أيضاً، استعمال كلّ كمية النفط الذي تمّ الاستيلاء عليها، كما ترميد كلّ أولئك الذين رغبوا في تدمير باريس عبر وسيلة هذه النار الإغريقية الحديثة. على الأقل سينفع هذا الزيت الملعون في أمر مفيد...

خفت حدّة الحرائق. لم تندلع حرائق جديدة إلّا في شوارع بريا وفافان والباستيل. تمّت السيطرة على النيران في كلّ مكان. أصيب مُشعلوها بالإحباط: إذ تمَّت مفاجأة أولئك الذين لم يتمكنوا من رمي قنابل النفط في الأقبية مجدداً وهم يتسلون بدهن الجدران وأبواب المنازل الخارجية. إنه الغضب، الهوس. بعد عدة أيام، حين يسود الهدوء في الأرواح، لن نتمكن من تصديق عمليات الرعب هذه. سنخرج منها كما لو كنا نخرج من حلم. إلّا أن السكان، لغاية هذه اللحظة، وحتى المتقاعدين المسالمين منهم، يشعرون بالتوتر، لذلك يقتصّون بأنفسهم من المذنبين، حين يفاجئونهم. حتى إن العديد من الأبرياء تمّ الاقتصاص منهم من قبل السكان المهووسين بالرعب. بعد مئة سنة، سيذكر سكان باريس الحقيقية أيام الجنون هذه التي انقسم فيها المليون شخص، الذين بقوا فيها، إلى معسكري ذئاب، نهشوا بعضهم البعض...

ومثلما كتبت لكم، لقد ساهم الرعب في تكبير الكارثة. يحلّ الهدوء ونكتشف بأن العديد من المباني التي كانت تشتعل فقط في مخيلة بعض المرعوبين، بأنها ما زالت واقفة ولم تصب بالأذى تقريباً...

لكن وللأسف، لم يكن هذا حال الرهائن. تمَّت تصفية نصفهم تقريباً. وقد أعلمكم الخبر بأن المطران داربوي، والرئيس بوجان، والكاهن دوغوري

وآخرين، كانوا من بين الضحايا. أحيلكم إلى التفاصيل المثيرة للشجون التي تنقلها الصحف. لا يمكنني سوى أن أستعيدها.

انتهت المأساة المخيفة. ستشطف الشوارع وينزع السلاح من باريس. ليحمنا اللّه الآن، من الطاعون.

الفصل 12

الرسالة التاسعة: باريس تنهض من كابوسها

30 أيار 1871

استمرت المعركة أسبوعاً؛ بدأت نهار أحد، وانتهت الأحد التالي، بعد 27 يوماً من المعارك البطولية ومن الكآبات التي يتعذر وصفها. ووسط الخوف، لا يمكننا بعد أن نتيقن من الوقائع، إذ لا نمتلك سوى مجموعة (من الأحداث) المشوشة. إلّا أن هذا الأسبوع الكئيب سيجد مؤرخيه، وحينذاك ستأخذ هذه الأيام السبعة، التي ستبقى عالقة في الذاكرة، مكانها في حولياتنا، وهي صفحات سود وملعونة، من صفحات تاريخنا؛ هي تشنجات عالية ستعلّم أطفالنا الاحترام والحرية والنظام.

لم أسمع بأيّ حدث عسكري كي أرويه لكم. الهمّ الكبير الآن في باريس، يكمن في نزع سلاح الحرس الوطني بشكل كامل. قبل شهرين، لم تكن البورجوازية الباريسية تشعر بضرورة تسليم بنادقها. لكن اليوم، يعرف السكان هذه الحاجة الملحّة بضرورة منع أيّ احتمال تمردّ جديد، لذا نجد أن غالبيتهم تحمل بنفسها السلاح الذي أعطي لها خلال الحصار كي تسلمه إلى البلدية.

عملية نزع السلاح هذه تبدو عملية طويلة وصعبة. ويُعمل عليها منذ أن دخل الجيش، لكنها تبدو بعيدة عن أن تشارف على النهاية.

جرت في البداية عملية نزع سلاح أولى، خلال فترة المعارك عينها. فكلّما كانت فرقة عسكرية تستولي على أحد الأحياء، تجري زيارة إلى شوارعه،

فيؤمر السكان بتسليم السلاح والذخيرة ووضعها في بعض الأمكنة المعينة، وبخاصة في مباني البلديات. وفي جانب آخر، تُجرى عمليات مداهمة خاصة لبعض المنازل المعينة...

لا تزال، إلى اليوم، عمليات مداهمة المنازل قائمة. يشارك فيها جنود الخطوط الأمامية، بقيادة ضابط يسبقه رجال شرطة. في الشوارع كلّها، نلتقي بهذه المفارز التي تلاحق العربات، وهي مكلّفة تدريجيّاً بمصادرة السلاح مهما كان نوعه، أسلحة صيد ومسدسات وسيوف وحراب إلخ. أعطيت الأوامر، خلال المعارك، بتحطيم كلّ البنادق ذات المكابس وعلب البارود، لتُستبعد أسلحة الصيد فقط. أعتقد أنهم يصادرون اليوم كل شيء. لعملية نزع السلاح جانب جميل صدمني. وكأنه أشبه بأمر نقل ترسانة. إلّا أن هذه العملية الرهيبة ــ حيث مجرد التفكير بها فقط يجعل الناس ترتجف من الأمر ــ تتكامل وسط نوع من الحماسة. حماسة من يتخلص من بندقيته بأسرع وقت ممكن. شاهدت نساء يرمين في العربات أسلحة أزواجهن وعلى شفاههن ابتسامات ارتياح. أخيراً تخلص المنزل من كلّ الأدوات الحربية التي جعلت الأمهات والزوجات يرتجفن لمدة عام تقريباً. لقد جلس البؤس داخل البيت، منذ أن حدث ما حدث، لتُعلق على الحائط بندقية وعلبة الذخيرة. هل سينتهي هذا الشقاء مع السلاح. هل انتهى اللعب الحزين مع الجنود؟ تشعر كل العائلات بالسعادة، إذ تعتقد أن أدوات العمل ستحلّ مكان أدوات التدمير هذه. لم أسمع بحادثة مقاومة واحدة. بعد عدة أيام، ستنتهي عملية نزع السلاح، لتبقى فكرة الحرس الوطني؛ إذ من المحتمل، ولو قليلاً، أن يعاد تنظيمه من جديد: لقد أصبحت الخدمة العسكرية أمراً إجباريّاً، فمن غير المفيد، في المدن، الاحتفاظ بميليشيا لن تكون إلّا خطراً على نظام المدينة.

تستيقظ باريس من كابوسها. نهار أمس، استقبل خبر استسلام حصن فانسان ــ آخر معاقل المتمردين ــ بصرخات الفرح. ازدانت الشوارع بأسرها بالألوان الثلاثية. لم يكن الأمر مجرد ابتهاج، بل ترفرف الرايات فوق الدمار؛

إنه فرح عميق، وإن كان لا يزال حزيناً بعد، يعطي بشكله الكلي انطباعاً عن فكرة خلاص. ثمة ابتسامة لهذا الهدوء الذي يولد من جديد، وها إننا نحلم بالانبعاث. فالقوى الحيّة في بلادنا تملك طاقة كبيرة، لدرجة أنه بعد عدة أشهر، سيبحث الغرباء ــ بدون شك، وبدهشة، عن جراح كوارثنا، المضمدة والمندملة.

شعرت في الهواء الأصفى هذه النفحة من الانبعاث. أؤكد لكم، أن باريس تملك رغبة عارمة في أن تعود لتكون أكبر المدن الملكات في أوروبا. فمن خلال هذا الحطام، بدأت تنمو هذه الآمال وهذه الرغبات في الشفاء العاجل. يمكن قراءة ذلك على الوجوه. سيبدأ هذا الشعب بأسره في العمل السليم. ستُغسل المدينة، ومن الحماسة، سنصنع أعاجيب العالم. الأحد المنصرم كما يوم أمس، بدأت باريس بالنزول إلى الشوارع كي تشاهد عن كثب حجم الكارثة ولترى أيّ جهد يلزمها لتعيد إيقاف مجدها على قدميه. اجتاح الحشد الشوارع العريضة وأطراف المعالم الأثرية. يشعرون بالخجل، يعودون إلى الواقع، يرون الدمار الكبير في وضح النهار. ستختفي بعض المباني بشكل نهائي. يؤمل أن يتمّ الاحتفاظ بغالبيتها، عبر تأهيلها من جديد، وهي عملية خطيرة نسبيّاً.

كان الطقس رائعاً؛ النسوة واثقات، بدأن بالابتسام، يتنزهن ممسكات أطفالهن بأيديهن. ثمة عاطفة كبيرة استولت عليّ بسبب انبعاث عزيزتي باريس. لكن لا يمكن لها أن تموت! حمام الدم الذي اغتسلت به لتوّها، ربما كان ذا ضرورة مرعبة، لكي تهدأ بعض هذه الارتفاعات بدرجات الحرارة. ستشاهدونها الآن تكبر بحكمة وبهاء. من يحاولون قتلها بالشك والاحتقار ــ مثلما حاولت الكومونة أن تقتلها بالنار والفأس ــ سيجدون يوماً، وبشكل محتم، أن أسلحتهم ستحطم بين أيديهم.

اختفت الجثث، وبخاصة من أحياء وسط المدينة. تفتح الحوانيت أبوابها على خجل. منذ هذا الصباح، أعيد تزويد المدينة بالمؤن. اللحامون الذين أقفلوا

أبوابهم عادت بسطاتهم لتتزين بالبضاعة. خفَّت حدة الخوف من الحرائق ومن مشعليها، وذلك بفضل يقظة الأهالي. لم يشتعل أيّ حريق جديد منذ نهار الأحد...

تتنفس باريس اليوم، واستعاد جيشنا مجده العسكري.

الفصل 13

الرسالة العاشرة: باريس بدأت تهدأ.

31 أيار 1871

تهدأ باريس. نحن في هذه المرحلة من الكلل التي تأتي بعد الأزمات العنيفة. أملك القليل من الأخبار المهمة، لأنقلها لكم، إلا أن جلسات المجلس، لم تتوقف إلى الآن، عن إرسال أصداء خطورة ما. هذه هي أكبر الأخبار المثيرة للحشرية في هذا اليوم. الآن، لم نعد نخشى عنف المهزومين، بل بدأنا نقلق من قلّة صبر المنتصرين.

طبعاً لا تجهلون موقف اليمين منذ اليوم الأول (للأحداث). هناك مجموعة من الفوضويين العنيدين الذين لم يخفوا يوماً مشروعهم الإصلاحي. منذ بعض الوقت بخاصة، أصبح الانصهار بين جناحي منزل فرنسا، على قولهم، أمراً واقعاً، وكانوا يبدون واثقين من الانتصار. لكنهم رغبوا فعلاً في تأجيل محاولتهم لغاية الاستيلاء على باريس. لكن الأمر كان يتطلب عملاً صعباً وخطيراً ولا يمكن لشجاعتهم القيام به. كان يلزمهم فرنسا مطهرة، فرنسا نظيفة، بعيدة عن كل الأخطار. شكل السيد تيير، بالنسبة إليهم، كبش المحرقة. حين يُنقذ رجل الدولة هذا، الشهير، البلاد، سيطيحون به تقريباً بتهذيب وسيحكمون على هواهم، دافعين الإيمان إلى أقصاه لدرجة أن يوزعوا على أنفسهم السعف من خلال أوروبا الرقيقة. ذاك هو حلمهم الذي طالما داعبهم، ولشدة عجلتهم، ها هم يرغبون في تنفيذه بسرعة، الآن، حتى قبل تنظيف بلاط باريس.

لغاية هذه الساعة، لا نملك سوى قوة وحيدة، هذا المجلس الوطني الذي شكل الراية التي التفَّ حولها كلّ المواطنين الصالحين. بالتأكيد، لا أخلط أغلبية البرلمان مع الداعمين بقوة اليمين المتطرف، وأعتقد أن كلّ محاولة انقلاب ستجد، ليس فقط في السيد تيير، بل أيضاً في هذه الأغلبية، خصماً حيويّاً. علينا أن لا نهب البلاد، لا إلى الثورة ولا إلى الرجعية، إذ سيشكل الأمر ضعفاً غريباً، بعد أن صارعت لشهرين باسم الحرية المهانة، ولا أن نترك الشرعيين أيضاً، أو أيّ مجموعة سياسية أخرى أن تستفيد من ذهول الشعب ومن خوفه كي تقطع بعض الإصلاحات الهجينة. إلّا أنني آمل من رئيس السلطة التنفيذية، وقبل أن يستشير فرنسا حول شكل الحكومة النهائية، أن يترك الوقت لكي تستعيد دمها البارد وأن يزن الوضع بوضوح، إذ إنني لا ألوم أكثر سوى عدم تسامح جزء من الجمعية الوطنية كما الرغبة المعترف بها بأن بعض الرجال يعلنون النيّة بالاستفادة الآنية من محاصرة باريس...

لو أننا في زمن آخر... لبدا لنا أن تغيير هذه الوزارة، ولبدت لنا هذه المحاولات المرتجاة في الإصلاح الملكي، وكأنهما قد أنتجا عاطفة صاعقة في باريس. بيد أننا الآن، نعلي هنري الرابع فوق العرش وتترك باريس الأمر ليحدث بهدوء طفل. ثمة سرور ما في التعاطف مع السيد تيير الذي سيكون لديه خبر مرعب في إذاعته. فقائد السلطة التنفيذية ينتظر هذه المعركة منذ زمن. بالنسبة إليه، لقد بدأت المشكلة الآن، لأنه كان واثقاً من هزيمة التمرد، وها هو يشعر الآن بأنه أقل صلابة في مواجهة المتعصبين داخل المجلس. لا يتأسف أحد على الإجراءات التي اتخذها الرجال في 4 أيلول، لكننا نتساءل عن الوزراء الجدد الذين سيحلّون مكانهم. من أجل تأسيس شيء صلب ونهائي، يتوجب على المؤقت أن يدوم بعد وقت آخر...

عدم صبر اليمين يعبّر هنا عن خشية أخرى. إنهم أطفال رهيبون، أولئك المتعصبون، الذين يصنعون الأوهام، والذين يمكنهم تعريض الوضع لخطر داهم بشكل كبير، فيما لو تركناهم يقومون بذلك. محازبو بونابرت يراقبون

الوضع. فإن تُرمى البلاد في مغامرة جديدة فسيستفيدون من المعركة الجديدة، بشكل مضمون، كي يتدخلوا. ومن يعرف، ما إن كانت البلاد ــ إن قامت بالاستشارات باكراً، أي قبل أن تجرى التحقيقات الضرورية حول الأحداث الأخيرة ــ ستخطئ في أن تعيّن نابوليون بدلاً من أن تعيّن واحداً من سلالة البوربون... لكن ما يبرهن على أن الأزمة وصلت إلى نهايتها، هو أن القطارات استطاعت نهار أمس أن تعود إلى العمل، وقد هُدِمت الحواجز وأزيلت من كل مكان تقريباً. بؤس صغير أخير أصابنا: ينقصنا التبغ، فنصف مكاتب التبغ أقفلت أبوابها. بعد أسبوعين من الآن، ستنفد المؤن بدورها: ومن جديد سنبدو محكومين، مرة أخرى، بأتعس أيام الحصار.

ازدهرت فوق أرصفة باريس تجارة جديدة، أرغب في أن أقولها لكم، في ختام رسالتي هذه. وهي تبدو وكأنها بمثابة احتجاج ضد منطق الكومونة الأحمر، إذ إن كل السكان، قاموا برفع الأعلام الثلاثية الألوان (العلم الفرنسي) على نوافذهم. وللحال، استقر تجار الأعلام على طول الأرصفة، يحركهم هذا الإلهام للقيام بهذه التجارة الصغيرة التي تستفيد ــ بشكل رائع ــ من كل العواطف التي تجتاح المدينة. لا يشكل الأمر سوى أعلام، سوى رايات، سوى لوحات. يشعر المرء بأنه في عرض انتصار. وما من منزل، لم يلفّ نفسه بالعلم، من الأعلى حتى الأسفل، بالألوان الثلاثية. رأيت طفلين، في الرابعة من عمرهما، يتنزهان في الشارع، يحملان علماً أكبر منهما.

الفصل 14

الرسالة الحادية عشرة:باريس بكت

1 حزيران 1871

حالة الطوارئ في أوجها. أعلن للتوّ تقسيم باريس إلى أربع مناطق عسكرية. ليس هذا ــ وبرغم كونه أمراً ممتازاً ــ سوى إجراء مؤقت، إذ إن الشوارع ليست آمنة بعد. ويتوجب القول أيضاً، إنه لا يمكننا أن نعيد تنظيم السلطة المدنية، في بضعة أيام. إنها خسارة عارمة. تجد الحكومة فوضى حقيقية. فمراكز الإدارات الكبيرة، التي أحرقت أو هدمت، تزيد في تعقيد الوضع. يتطلّب الأمر ارتجال موظفين وأمكنة. هو عالم ينبغي بناؤه من جديد. وبانتظار ذلك، هي السلطة العسكرية، الوحيدة، القادرة على مواجهة هذا الوضع الدقيق الذي تمرّ به المدينة الكبيرة.

من هنا، نجد أن المحاكم العسكرية لا تزال مستمرة، وهي تنفذ الإعدامات باستمرار، لكن يجب القول إنها أصبحت أقل. هناك مجموعات ترابط حول أمكنة محددة من أجل تنفيذ عمليات الإعدام هذه؛ لا يزال حدوث أمر مرعب يسيطر على أذهان الجموع، واللّه يعلم، ما إذا كان المتفرجون، في هذه الأثناء، سيرضون بمشاهد الدم والرعب! بعد عدّة أيام، وعلينا أن نأمل ذلك، ستتخذ العدالة أشكالاً أقل تسرعاً. فنيران فصائل الإعدام المستمرة، التي لا نزال نسمعها في المدينة الكئيبة، تلعب دوراً كبيراً في استمرار هذا الكابوس...

أردد ما قلت سابقاً، إن القسوة التي نعامل بها باريس الآن، هي قسوة مبررة من جراء الانفجارات التي لا تزال تلوّث الشوارع. في كل يوم، ثمة محاولات

قتل يتعرض لها الجنود والضباط. لدرجة أن الجنرال لادميرو كاد يتعرض للقتل نهار أمس. لا يزال التمرد، الذي أخمد، يثير الرغبة في العضّ. لذلك تجري عمليات حراسة مستمرة في الشوارع؛ المنازل المشبوهة مراقبة، ويجري التسريع ــ بقدر ما يمكن ــ بعمليات نزع السلاح. من مكان إلى آخر، على الأرصفة، نجد عناصر حراسة، حاملين السلاح، وهم يفرقون المتجمعين بحضورهم فقط...

بدأت باريس تشعر بالانزعاج وهي ترزح تحت هذه اليد الحديدية التي تلويها. هنا ثمة شعور بالفخر لا يجب علينا أن نسفهه، وهو يشير، مرّة إضافية، إلى حساسيات المدينة العصابية. لقد صفقت (المدينة) لحظة دخول الجيش، وهي سعيدة من جرّاء تحررها؛ إلّا أنها تجد بأنهم يقلقون مضجعها بشكل قوي، قليلاً ما يثار القلق من ذلك لأسباب كثيرة. لا أؤيد هذا الأمر بل إني أستنتجه. الآن وقد انتهت المعركة، تنتظر باريس أن تستعيد حياتها العادية، وأن لا تسقط في أيدي جنود النظام بعد أن سقطت في أيدي جنود الفوضى. ستصبر على ذلك بالطبع لعدة أيام أخرى؛ إلّا أن تصرفها البارد، يجعلنا نشعر بأنها ستكون عاقة.

وهناك أمر آخر لا أريد أن أخفيه عليكم أكثر. لقد تعبت باريس من حفلات القتل. تجد أنهم أعدموا الكثير من الأشخاص. لا لأنها تشكو أعضاء الكومونة، بل لأنها تجد، أن بين هذا الركام (من الجثث)، هناك العديد من الأبرياء، وبأنه حان الوقت، قبل تنفيذ أيّ عملية إعدام، أن يكون هناك وقت للقيام بتحريات جديّة...

باريس حزينة بما فيها الكفاية، قُصفت وجاعت لسبعة أشهر، وذلك من أجل أن لا نعامل تعبها وضعفها ورحمتها، بقسوة تفوق الوصف. سيتمّ البحث عن استغلال المشاعر التي تدعها تنبثق بدءاً من اليوم. بيد أن الحقيقة لن تكون في أن باريس تحلم بمتاعب جديدة، لتجد نفسها في وضعية تثير قلق فرنسا؛ ستكون الحقيقة أن باريس، المخنوقة، المسمومة، الفاقدة لقدرتها، تريد أن

تحيا بطمأنينة، من دون أن تشعر، كل لحظة، بأنه يُشار بالبنان على أنها ماجنة. لو قمنا بإحاطتها بزنّار من مدافع، لو تركناها طويلاً مرتدية سترة القوة، لأحلناها مسعورة، لقتلناها.

بدا عرض جثتي المونسنيور داربوف والكاهن دوغوري، أمراً ممتازاً، جاء بمثابة رافعة نفسية. فهاتان الجثتان، على سرير الموت، تركتا عند الناس أثراً أعمق ممّا تركه مرأى ألوف الجنود والسيوف في قبضاتهم. ذهبت باريس بأسرها لرؤية ضحايا الكومونة، وقد بكت باريس بأكملها. ولا مرة، في حياتي، سمعت حفلاً موسيقيّاً من اللعنات المماثلة عند الحشود. فنيران الفصائل العسكرية التي أقرّت العدالة بحقّ المتمردين، بدت، اليوم، مثل صاعقة من السماء أبادت المذنبين. يتوجب الحديث إلى عيون هذا الحشد المدهش كما إلى قلوبه، حيث إن أعصابه قد دُمرت جراء سلسلة كوارث لا مثيل لها. فمن قال إن باريس تعيش منذ الحصار في هوس التدمير، فهم بذلك قدموا بالتأكيد واحداً من شروحات الأزمة الرهيبة، هذه الأزمة التي عشناها لتوّنا. علينا معالجة المجانين لا معاقبتهم.

لقد حدثت حصة النيران. أثق بالسيد تييرس. فهو الشخص المحبّ لباريس فعلا، وسيعرف في أيّ لحظة سيصبح الدرس الذي تلقته المدينة الكبيرة قسوة خالصة. حين تُلعلع آخر طلقة نارية، يلزمنا الكثير من النعومة كي نشفي هذه الملايين المهلوسة، التي ارتجفت من الحرائق والمجزرة.

الفصل 15

الرسالة الثانية عشرة:باريس، المركز الذي يشعّ فيه كلّ شيء.

2حزيران 1871

سأحدثكم أخيراً عن رغبة اليمين المتطرف في إقالة السيد تييرس، الذي يزعجه في مشاريعه الصغيرة... صحيفة «الإيكو» (الصدى) الفرنسية، التي تشكل الجهاز السرّيّ لأولئك السادة، ابتدأت لتوّها بحملة ضد رئيس السلطة التنفيذية، وهي على درجة كبيرة من العنف، ما دفع الحكومة إلى مصادرة أحد الأعداد... حتى إنها بدأت حديثها بالإعلان أنه في «ماضي السيد تييرس، نجد أنّ حصة المتمرد أكبر من حصة الحاكم»...

بيد أنه، لو كان هؤلاء السادة أذكياء، لتوجب عليهم أن يفهموا من الآن بأنهم لن يقضوا على السيد تييرس بسهولة. إذ إن هذا الأخير يبدو أكثر حزماً من أيّ مرة سابقة في أن لا يسامح أيّ عملية انقلاب. هو هنا من أجل تجربة جدية لأجل الجمهورية. فالأحداث الأخيرة، وبعيدة من أن تكون قد زعزعت رأيه، قد أثبتت له بأن كل نظام ملكي يتعرض إلى صعوبات جمّة، وبأن جمهورية شريفة، خالية من الحرائق ومشعليها، هي الشكل الوحيد لحكومة لن تُقسم فرنسا وستسمح له بأن يعيد تنظيمها خلال فترة قصيرة...

وما دمنا نعيش الآن حالة مؤقتة، فإن مسألة باريس كعاصمة هي مسألة ثانوية. لكن ما إن يصار إلى تبنِّي شكل من أشكال الحكومات، يبدو لي أنه من الصعب أن توافق الحكومة على أن تنقسم إلى جزأين وأن تُعقد ــ بغير طائل ــ عجلات الإدارة عبر مضاعفتها لجميع أنواع المندوبين. فمدينة مثل باريس، هي عاصمة بشكل قدري، عبر التاريخ، وعبر تخطيطاتها حتى، عبر

الأسباب التي جعلت منها، منذ أمد بعيد، مركزاً يشعّ فيه كل شيء. وإن كانت باريس تقبل بكثير من الحكمة مظهر السلطة الحذر، فلأنها تفهم من دون شك، أنه في لحظة معينة، سيكون من الصعب جدّاً تخطّيها.

يسود الهدوء أكثر فأكثر، وشكراً لك يا إلهي على ذلك! الأخبار التي تثير المشاعر أصبحت نادرة... ثمة أخبار تفيد أن بين أيدي الحكومة أكثر خيوط التمرد سرية. ففي بعض الأوراق التي تمَّت مصادرتها، والعائدة لـ دومبروفسكي ولغيره من رجال الكومونة، اكتشفت أشياء خطيرة. هو حبر الأممية الأعظم كارل ماركس، والدكتور الشهير جاكوبي، اللذان رغبا في محاولة تطبيق نظرياتهما السياسية عندنا. وقد ارتأى الأخير منهما، بخاصة، أن اللحظة مؤاتية لذلك. هذان الغريبان يجربان مبادئهما على فرنسا كما لو أنهما يجربان ذلك على شخص محتضر، كما على شخص من أولئك المرضى في المستشفيات الذين يشرّحهم الجراحون في سبيل حب العلم الكبير. لم يهتمّا كثيراً في أن يموت وطننا خلال هذه العملية الجراحية. وإن صح القول إن هناك مؤامرة وإن زعماء هذه المؤامرة هم من الغرباء، لكنّا وجدنا أنفسنا وقد اغتسلنا ببقعة كبيرة، ويمكن لجيشنا أن يصرخ بصوت أعلى من كل مرة، بأنه بعد أن دُمر من قبل البروسيين، قد قدم للعالم خدمة: لقد جلب له أماناً دائماً ومزدهراً.

علمنا أمس بخبر الحادثة البغيض الذي تعرض له فيكتور هوغو. هاكم درساً مفيداً. فالعبقري هو الأخ البكر للجنون. لقد صرح هذا الشاعر الكبير عن نيته في فتح ملجأ في منزله، وفي الوقت عينه، يجد الوسيلة لجرح بلجيكا، التي، ولها كل الحق في ذلك، رفضت اعتبار مشعلي الحرائق في التويليري بمثابة رجال سياسة مثلهم مثل قتلة الرهائن الذين وقعوا خلال الكومونة. أجابت بلجيكا عن موقفها بطرد هذا الثرثار الرائع، في حين إن الشعب، كان أكثر سرعة، إذ لم ينتظر صدور قرار الطرد، بل توجه رأساً لكي يندد بهذا العادل المتفرد، الذي، وللراحة، كان ينزه رأفته في سجون الأشغال الشاقة. يا إلهي

الرحيم! كم من الحماقات يرتكبها الغرور، الرغبة القوية في إدهاش الكوكب، الإرادة المتوقفة عن التفكير بطريقة مختلفة عن الآخرين! يدا فيكتور هوغو نظيفتان جدّاً، فهو لم يلمس في هذا العالم يداً سوداء أبدا؛ إلّا أن رغبته في أن يكون مخالفا وعلى النقيض تدفعه إلى البحث، بعيداً، في الزبالة. أعرف جيداً أسباب حبّه للمستعبدين: يبرهن عن ألوهيته عبر تلطفه بالنزول إلى أقذر بالوعات هذه الأرض.

الفصل 16

الرسالة الثالثة عشرة: لن تُصلح السنون كوارث الكومونة

3حزيران 1871

بدأنا نخرج من الظلمات التي لفّتنا منذ أكثر من شهرين. سيبدو أمر تمرد الثامن عشر من آذار حساساً جدّاً على الكتابة. إلى هذه اللحظة، لا نعرف بعد إلّا سير الأحداث بشكل عام، وما زلنا بعيدين بعد عن معرفتها، في حقيقتها الفعلية. تكذب الكومونة، وما زال قصر فرساي يحافظ على كتمانه المطلق. كذلك عشنا في الجهل المطبق. يستلزم الأمر وثائق رسمية من أجل اقتلاع جذور الأخطاء التي تقبلتها الأرواح الكبيرة. سيأخذنا التحقيق قريباً إلى كواليس العصيان. الخلاصة ــ لغاية الآن ــ يجب عدم الاستعجال بتحديد أفكار دقيقة لهذه الحركة التي شهدناها لتوّنا، والتي سيغير الناس بأسرهم أحكامهم عليها وتكذيب المعطيات الجديدة التي امتلكوها منذ شهر آذار بصفتها حقائق مؤكدة ومطلقة.

والحال كذلك ــ فأنا مثلي مثل كثيرين غيري، أمامي امتحان وعي أقوم به ــ إذ إنني أخطأت في رسائلي الأولى، باتهام رجال الأمن بالخمول الذين بقوا في باريس. في الحقيقة، إن هؤلاء الرجال كانوا على اتصال بفرساي، منذ التاسع عشر من آذار. حين كانت الكومونة تتحدث عن مؤامرة، دبرها «خصيان فرساي»، فهي لم تكن تكذب بذلك. المؤامرة كانت موجودة فعلاً، لكن الهجوم المستمر والعراقيل غير المتوقعة هي التي ساهمت في منع حصولها، في ثلاث أو أربع مناسبات، كما حمل السلاح من قبل الحرس الوطني التابع للنظام. لا يمكنني بعد أن أعطيكم تفاصيل دقيقة.

فهذه الحركة، المجهولة لغاية الآن، تغير ــ بالنسبة إليّ ــ وجه الأشياء بشكل كامل. إذ إنها تشرح هذا الذعر عند الكومونة والذي أعتبره بمثابة ضربات مسرح محضر لها سابقاً. وهي من جانب آخر، تجد الأعذار لبعض البطء الذي أبدته الحكومة التي كانت تأمل في تجنيب المدينة الكبيرة هذا الاحتضار الذي استمر لثمانية أيام والتي لا تزال مدماة، منها، إلى الآن. إنها مأساة معقدة، وأكرر قولي إننا، نبدأ الآن بالكاد، بمعرفة نوابضها الحقيقية. الآن، نحن بحاجة إلى الهواء والنور. علينا أن نعرف جميعاً، علينا أن نتعرف إلى المواطنين الكرماء الذين راهنوا برؤوسهم، في الوقت الذي نتهم فيه أناس باريس النزيهين بأنهم تركوا الآخرين يقبضون على أعناقهم أو حتى بأنهم عقدوا اتفاقاً مع المتمردين...

لقد عادت حركة السير إلى طبيعتها؛ وقد فتحت أبواب المدينة عند السابعة من صباح هذا اليوم. أما المواطنون، وبعد هزيمة العصاة، فعليهم اتباع التعليمات خلال أسبوع آخر، على سبيل الحيطة والحذر. ومع ذلك، كم إن أعداد الناس كانت كبيرة على أبواب المدينة! البائعون برمّتهم، كل التجار الصغار الذين يخزنون بضائعهم في الضواحي، كل الناس الذين يشعرون بحنين إلى الريف، طاروا زرافات إلى ما يرغبون فيه. ثمة حجيج إلى المدن المدمرة، لذا نلتقي على طول الطريق بمواطنين فقراء وهم يعودون حاملين معهم أثاث منازلهم في سيارة صغيرة أو تحت أذرعهم، ولا يجدون هناك سوى الدمار. الأمر أشدّ إيلاماً من الحصار الأول.

لا يزال يخيم على المدينة بذاتها، شكل غريب. فأحياء بلفيل ومينيلمونتان تشهد حركة خفيفة؛ لكن في حصيلة الأمر، لقد صُدِم الشعب برعب يجبره على عدم التكلم عن الأحداث الأخيرة. رغبت أمس في الحصول على بعض تفاصيل المعركة التي حدثت حول «الروكيت»، فتوجهت بالحديث إلى عامل أجابني بقسوة: «بأنه لا يعرف». فمن خلال نظراته الحذرة، شاهدت أنه يعتبرني بمثابة مخبر. ستبقى باريس مكمومة الفم لفترة طويلة مقبلة. وفي

أثناء ذلك، هناك خشية نسبية من وجود قنابل صُنعت بالآلاف ولم يُعثر إلّا على عدد قليل منها. عمليات البحث النشطة عنها، تتمّ عبر الشرطة. أما فيما يخص الأسلحة الحقيقية فهي تُحمل بالعربات.

لا تزال المدينة حقل معركة واسعاً. تخيّم الجحافل العسكرية في المسارح، حول التماثيل، في أمكنة التنزه. ثمة فرسان في «البورصة»، سلاح المشاة في «الفاريتيه»، في هذا القصر المدهش العائد لهيلين الجميلة. ثمة دوريات تستمر في السهر على تأمين السلامة في الشوارع. ومع ذلك، شاهدت أمس عدداً كبيراً من رقباء المدينة الذين عادوا إلى خدمتهم. عند الساعة الحادية عشرة، دعا الجنود الناس إلى الانسحاب من الشوارع. لم يكن ذلك عملاً صغيراً. انسحب المتنزهون آسفين. يشعر المرء بالسعادة وهو يتنشق الهواء بسلام، وهو على يقين أن لجنة السلام الأهلي، الرهيبة، لم تعد موجودة خلفه، في الظل...

على مدى شهرين، راكمت الكومونة الكوارث والجرائم التي لن تصلحها السنون أبداً. القضاة وعمال البناء، سيكون أمامهم عمل لفترة طويلة مقبلة.

الفصل 17

الفهرس

النهاية - الفصل 18